

المسحاة

مجلة

المجلد السابع عشر
الجزء الثامن



إهداء من

طبعة دار الوفاء
للطباعة والنشر

تابعوا ...



WWW.ALUKAH.NET

(المجلد السابع عشر)

٥٦١

(الجزء الثامن)

أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الأبواب
يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد

المعراج

١٣١٥

أولئك الذين هدامهم الله وأتتكم هم أولوا الأبواب
فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيبدعون أحسنه

﴿ قال عليه الصلاة والسلام : ان للإسلام صوى و « منارا » كنار الطريق ﴾

مصر سلخ شعبان ١٣٣٢ هـ ق ٢ الصيف الثاني ١٢٩٢ هـ ش ٢٤ يوليو ١٩١٤

(المجلد السابع عشر)

(٧١)

(المنار - ج ٨)

(المنار ج ٨ م ١٧) قول الامام الشافعي بوجوب تعلم العربية ٥٨٩

فتاوى المنبجاني

افتتحنا هذا الباب لاجابة اسئلة المشتركين خاصة ، اذ لا يسمع طامة الناس ، ونشترط على السائل ان يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك ان يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء ، واننا نذكر الاسئلة بالتسريخ غالباً ورمياً قد منّا تأخر السبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه ورمياً اجبتنا فيه مشترك لئلا هذا ، ولمن مضى : قال : قد ذكر في السابق صاحب المنار

(وجوب تعلم العربية على كل مسلم)

(١٩ س) من صاحب الامضاء بمصر

السيد الامام صاحب المنار

قرأنا في أعداد سابقة من مجلتكم المنار أدلة وجوب تعلم اللغة العربية على كل مسلم وأشرتم في بعض الاجزاء الى ان الامام الشافعي (رح) قال بذلك . ثم قرأنا في الجزء السابع من المجلد ١٧ قول عبيد الله صاحب « قوم جديد » باستثناء المسلمين عن تعلم العربية . فترجو أن تنشروا قول الامام الشافعي بذلك الجأماً لذلك الدجال واطئنا لقوم يؤمنون ؟

مستفيد

يقرأ المنار

(ج) جاء في رسالة الامام الشافعي التي هي أول رسالة كتبت في أصول الفقه برواية الربيع بن سليمان المرادي ما نصه :

(قال الشافعي) رضي الله عنه والقرآن يدل على أن ليس في كتاب الله شيء الا بلسان العرب ، ووجد قائل هذا القول من قبل ذلك منه تقليدا له وتركاً للسألة له عن حجته ومسألة غيره ممن خالفه ، وبالتقليد أغفل من أغفل منهم والله يغفر لنا ولهم . ولعل من قال : ان في القرآن غير لسان العرب ، وقبل ذلك منه ذهب الى أن من القرآن غلظاً يجهل بعضه بعض العرب ، ولسان العرب أوسع الالسننة مذهباً وأكثرها ألفاظاً ، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه انسان غير نبي ، ولكنه لا يذهب

٥٩٠ قول الامام الشافعي بوجوب تعلم العربية (الناشر - ج ٨ م ١٧)

منه شيء على عامتها ، حتى لا يكون موجودا فيها من يعرفه ، والعلم به عند العرب كالعلم بالسنة عند أهل الفقه ، لا نعلم رجلا جمع السنن فلم يذهب منها عليه شيء ، فاذا جمع علم عامة أهل العلم بها أتى على السنن ، واذا فرق علم كل واحد منهم ذهب عليه الشيء منها ، ثم كان مذهب عليه منها موجودا عند غيره ، وهم في العلم طبقات ، منهم الجامع لا كثره وان ذهب عليه بعضه ، ومنهم الجامع لا قل مما جمع غيره ، وليس قليل مذهب من السنن على من جمع أكثرها دليلا على أن لا يطلب علمه عند غير أهل طبقته من أهل العلم ، بل يطلب عند نظرائه ما ذهب عليه حتى يوثق على جميع سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بأبي هو وأمي ، فينفرد جملة العلماء بجمعها ، وهم درجات فيما وعوا منها . وهكذا لسان العرب عند خاصتها وعامتها لا يذهب منه شيء عليها ، ولا يطلب عند غيرها ولا يعلمه الا من قبله عنها ، ولا يشركها فيه الا من اتبعها في تسلمه منها ، ومن قبله منها فهو من أهل لسانها ، وانما صار غيرهم من غير أهل بتركه ، فاذا صار إليه صار من أهله ، وعلم أكثر اللسان في أكثر العرب أهم من علم أكثر السنن في أكثر العلماء .

فان قال قائل : فقد نجد من المعجم من ينطق بالشيء من لسان العرب ؛ فذلك يحتمل ما وصفت من تعلمه منهم ، فان لم يكن ممن تعلمه منهم فلا يوجد ينطق الا بالقليل منه ، ومن نطق بقليل منه فهو تبع للعرب فيه ، ولا ينكر اذا كان اللفظ قبل تعلمه أو نطق به موضوعا أن يوافق لسان المعجم أو بعضها قليل من لسان العرب ، كما ياتفق (١) القليل من السنة المعجم المتباينة في أكثر كلامها ، مع تنائي ديارها واختلاف لسانها ، وبعد الاواصر (٢) بينها وبين من وافقت بعض لسانه منها

فان قال قائل : ما الحججة في أن كتاب الله محض بلسان العرب لا يخلطه فيه غيره ؟ فالججة فيه كتاب الله ، قال الله تبارك وتعالى (وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم) فان قال قائل : فان الرسل قبل محمد صلى الله عليه وآله وسلم

(١) قوله ياتفق هو مضارع بمعنى يتفق لكن لم تدغم فيه فاء الافتعال بل قلبت حرفا ليينا من -نس الحركة قبلها وهي لنة أهل الحجاز يقولون : ايتفق ياتفق فهو موثق ولنة غيرهم الادغام (٢) الاواصر جمع أصرة وهي الرحم والتقاربة

(المنار- ج ٨ م ١٧) قول الامام الشافعي بوجوب تعلم العربية ٥٩١

وسلم كانوا يرسلون الى قومهم خاصة وأن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم بعث الى الناس كافة ، قيل : فقد يحتمل أن يكون بعث بلسان قومه خاصة ، ويكون على الناس كافة أن يتعلموا لسانه أو ما أطاقوه منه ، ويحتمل أن يكون بعث بألسنتهم ، فإن قال قائل : فهل من دليل على أنه بعث بلسان قومه خاصة دون ألسنة المعجم ؟ (قال الشافعي) رحمه الله تعالى : فالدلالة على ذلك بيّنة في كتاب الله عز وجل في غير موضع ؛ فإذا كانت الألسنة مختلفة بما لا يفهم بعضهم عن بعض فلا بد أن يكون بعضهم تبعاً لبعض ، وأن يكون الفضل في اللسان المتبع على التابع . وأولى الناس بالفضل في اللسان من لسانه لسان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا يجوز — والله تعالى أعلم — أن يكون أهل لسانه أتباعاً لأهل لسان غير لسانه في حرف واحد ؛ بل كل لسان تبع لسانه ، وكل أهل دين قبله فعليهم اتباع دينه . وقد بين الله تعالى ذلك في غير آية من كتابه . قال الله عز ذكره (وانه لتنزّل رب العالمين، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين، بلسان عربي مبين) وقال (وكذلك أنزلناه حكماً عربياً) وقال (وكذلك أوحينا إليك قرآننا عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها) وقال تعالى (حم، والكتاب المبين ، انا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون)

(قال الشافعي) رحمه الله تعالى فأقام حجته بأن كتابه عربي في كل آية ذكرناها . ثم أكد ذلك بأن نفى عنه جل وعز كل لسان غير لسان العرب في آيتين من كتابه فقال تبارك وتعالى (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) وقال (ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا : لولا فصلت آياته ، أأعجمي وعربي ؟)

(قال الشافعي) رحمه الله تعالى : وعرفنا قدر نعمه بما خصنا به من مكانه فقال تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه) الآية — وقال (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم) الآية ، وكان مما عرف الله تعالى نبيه عليه السلام من انعامه عليه ان قال (وانه لذكر لك ولقومك) فخص قومه بالذكور معه بكتابته

٥٩٢ قول الامام الشافعي بوجوب تعلم العربية (المنار- ج ٨ م ١٧)

وقال (وأندر عشيرتك الاقرين) وقال (لتندر أم القرى ومن حولها) وأم القرى مكة وهي بلده وبلد قومه ، فجعلهم في كتابه خاصة وأدخلهم مع المنذرين عامة ، وقضى أن يندروا بلسانهم العربي لسان قومه منهم خاصة . فعلى كل مسلم ان يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده حتى يشهد به أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، ويتلو به كتاب الله تعالى وينطق بالذكر فيما اقتضى عليه من التكبير وامر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك . وما ازداد من العلم باللسان الذي جعله الله لسان من ختم به نبوته وأنزل به آخر كتبه كان خيرا له ، كما عليه ان يتعلم الصلاة والذكر فيها ، ويأتي البيت وما أمر باتيائه ، ويتوجه لما وجه له ويكون تبعا فيما اقتضى عليه وندب اليه لا متبوعا

(قال الشافعي) رحمه الله تعالى وانما بدأت بما وصفت من أن القرآن نزل بلسان العرب دون غيرهم لانه لا يعلم من ايضاح جمل علم الكتاب أحد جهل سعة لسان العرب وكثرة وجوه وجماع معانيه وتفرقها ، ومن علمها انتفت عنه الشبه التي دخلت على من جهل لسانها ، فكان تنبيه العامة على ان القرآن نزل بلسان العرب خاصة نصيحة للمسلمين ، والنصيحة لهم فرض لا ينبغي تركه ، أو ادراك نافلة خير لا يدعها الا من سفه نفسه وترك موضع حظه ، فكان يجمع بين النصيحة لهم قياما بايضاح حق ، وكان القيام بالحق ونصيحة المسلمين طاعة لله . وطاعة الله جامعة للخير

(قال الشافعي) رحمه الله تعالى : أخبرنا سفيان بن عيينة عن زياد بن علاقة قال سمعت جرير بن عبد الله يقول : بايعت النبي صلى الله عليه وسلم على النصح لكل مسلم . وأخبرنا سفيان بن عيينة عن سهيل ابن أبي صالح عن عطاء بن يزيد الليثي عن تميم الداري ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال « الدين النصيحة ، الدين النصيحة ، الدين النصيحة — قالوا لمن يا رسول الله ؟ قال — لله ولكتابه ولنبيه ولأئمة المسلمين وعامتهم » اه المراد منه

فصل *

إذا ثبت هذا انتقلنا منه الى معنى آخر :

وهو أن المحرم ينقسم في الشرع الى ما هو صغير وإلى ما هو كبير - حسبما تبين في علم الاصول الدينية - فكذلك يقال في البدع المحرمة إنها تنقسم الى الصغيرة والكبيرة اعتباراً بتفاوت درجاتها - كما تقدم - وهذا على القول بأن المعاصي تنقسم الى الصغيرة والكبيرة . ولقد اختلفوا في الفرق بينهما على أوجه ، وجميع ماقلوه لعله لا يوفي بذلك المقصود على الكمال . فلنترك التفريع عليه .

وأقرب وجه يلتمس لهذا المطلب ماقرر في كتاب الموافقات ان الكبار منحصرة في الاخلال بالضروريات المقبولة في كل ملة ، وهي الدين والنفس والنسل والعقل والمال . وكل ما نص عليه راجع اليها ، وما لم ينص عليه جرى في الاعتبار والنظر مجراها ، وهو الذي يجمع اشتات ما ذكره العلماء وما لم يذكره مما هو في معناه ؛

فكذلك نقول في كبار البدع : ما أخل منها بأصل من هذه الضروريات فهو كبيرة ، وما لا فهي صغيرة . وقد تقدمت لذلك أمثلة أول الباب . فكما انحصرت كبار المعاصي أحسن انحصار --- حسبما أشير اليه في ذلك الكتاب - كذلك تنحصر كبار البدع أيضاً ، وعند ذلك يعترض في المسئلة إشكال عظيم على أهل البدع يسر التخلص عنه في اثبات الصغائر فيها . وذلك ان جميع البدع راجعة الى الاخلال بالدين

(* تابع لما نقل من كتاب الاعتصام للإمام الشاطبي

(النار - ج ٨) (٧٥) (المجلد السابع عشر)

٥٩٤ التفاوت في المعاصي كالاخلاق خلال بركان الاسلام (المنار - ج ٨ م ١٧)

إما أصلاً وإما فرعاً، لأنها إنما أحدثت لتلحق بالمشروع زيادة فيه أو نقصاناً منه أو تغييراً لقوافيه، أو ما يرجع إلى ذلك؛ وليس ذلك بمختص بالعبادات دون العادات، إن قلنا بدخولها في العادات، بل نعم الجميع وإذا كانت بكتبتها اخلاقاً بالدين فهي إذاً اخلاق باول الضروريات وهو الدين، وقد أثبت الحديث الصحيح أن كل بدعة ضلالة، وقال في الفرق «كلها في النار إلا واحدة» وهذا وعيد أيضاً للجميع على التفصيل. هذا وإن تفاوتت مراتبها في الاخلاق بالدين فليس ذلك يخرجها عن أن تكون كباراً، كما أن القواعد الخمس أركان الدين وهي متفاوتة في الترتيب، فليس الاخلاق بالشهادتين كالاخلاق بالصلاة، ولا الاخلاق بالصلاة كالاخلاق بالزكاة، ولا الاخلاق بالزكاة كالاخلاق بمرمضان، وكذلك سائرهما مع الاخلاق، فكل منها كبيرة. فقد آل النظر إلى أن كل بدعة كبيرة ويحجب عنه بأن هذا النظر يدل على ما ذكر، ففي النظر ما يدل من جهة أخرى على إثبات الصغيرة من أوجه:

(أحدها) أنا نقول: الاخلاق بضرورة النفس كبيرة بلا إشكال، ولكنها على مراتب أدناها لا يسمى كبيرة؛ فالتقليل كبيرة وقطع الاعضاء من غير اجهاز كبيرة دونها، وقطع عضو واحد كبيرة دونها، وهلم جرا إلى أن تنتهي إلى اللطمة؛ ثم إلى أقل خدش يتصور، فلا يصح أن يقال في مثله كبيرة، كما قال العلماء في السرقة: إنها كبيرة، لأنها اخلاق بضرورة المال. فإن كانت السرقة في لقمة أو تطيف بحبة فقد عدّوه من الصغائر. وهذا في ضرورة الدين أيضاً.

فقد جاء في بعض الأحاديث عن حذيفة رضي الله عنه قال: «أول

(المنار- ج ٨ م ١٧) جعل الصلوات ثلاثاً في آخر الزمان ٥٩٥

ما تفقدون من دينكم الامانة ، وآخر ما تفقدون الصلاة ، ولتنقض عرى الايمان عروة عروة ، وليصلين نساء وهن حيض - ثم قال - حتى تبقى فرقتان من فرق كثيرة تقول احداها : ما بال الصلوات الخمس ؟ لقد ضل من كان قبلنا ، انما قال الله « أقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل » لا تصان الا ثلاثاً . وتقول أخرى : انا لنؤمن بالله ايمان الملائكة ، ما فينا كافر . حق على الله ان يحشرهما مع الدجال « وهذا الأثر - وان لم تلزم عهدة صحته - مثال من أمثلة المسئلة .

فقد نبه على ان في آخر الزمان من يرى أن الصلوات المفروضة ثلاث لا خمس ، وبين ان من النساء من يصلين وهن حيض ، كانه يعني بسبب التعمق وطلب الاحتياط بالوساوس الخارج عن السنة . فهذه مرتبة دون الاولى

وحكى ابن حزم ان بعض الناس زعم ان الظهر خمس ركعات لا اربع ركعات ، ثم وقع في العتبية ، قال ابن القاسم : وسمعت مالكا يقول : أول من أحدث الاعتماد في الصلاة حتى لا يحرك رجله رجل قد عرف وسمي الا أنني لا أحب ان اذكره ، وقد كان مُساءً (أي يساء الثناء عليه) قال - قد عيب ذلك عليه ، وهذا مكروه من الفعل . قالوا «ومساء» أي يساء الثناء عليه . قال ابن رشد : جائز عند مالك ان يروح الرجل قدميه في الصلاة ، قاله في المدونة . وانما كره ان يقرنها حتى لا يعتمد على احداها دون الاخرى ، لان ذلك ليس من حدود الصلاة ، اذ لم يأت ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن أحد من السلف والصحابة المرضيين ، وهو من محدثات الامور . انتهى .

فمثل هذا - ان كان يمدّه فاعله من محاسن الصلاة وان لم يأت به أثر - فيقال في مثله : إنه من كبائر البدع . كما يقال ذلك في الركعة الخامسة في الظهر ونحوها ، بل انما يعد مثله من صفائر البدع ان سلمنا ان لفظ الكراهية فيه ما يراد به التنزيه ، وإذا ثبت ذلك في بعض الامثلة في قاعدة الدين ، فمثله يتصور في سائر البدع المختلفة المراتب ، فالصفائر في البدع ثابتة كما أنها في المعاصي ثابتة .

(والثاني) ان البدع تنقسم الى ماهي كلية في الشريعة والى جزئية ، ومعنى ذلك ان يكون الخلل الواقع بسبب البدعة كلياً في الشريعة ، كبدعة التحسين والتقبيح العقليين ، وبدعة انكار الاخبار السنية اقتصاراً على القرآن ، وبدعة الخوارج في قولهم : لا حكم الا الله . وما أشبه ذلك من البدع التي لا تختص فرعاً من فروع الشريعة دون فرع ، بل تجدها تنتظم ما لا ينحصر من الفروع الجزئية ، أو يكون الخلل الواقع جزئياً انما يأتي في بعض الفروع دون بعض ، كبدعة التشويت بالصلاة - الذي قال فيه مالك : التشويب ضلال . - وبدعة الاذان والاقامة في الميدين ، وبدعة الاعتماد في الصلاة على احدى الرجلين ، وما أشبه ذلك . فهذا القسم لا تعدى فيه البدعة محايها ، ولا تنتظم تحتها غيرها حتى تكون اصلاً لها .

فالقسم الاول اذا عدّ من الكبائر اتضح مغزاه وأمكن ان يكون منحصراً داخل تحت عموم الثنتين والسبعين فرقة ، ويكون الوعيد الآتي في الكتاب والسنة مخصوصاً به لا عامافيه وفي غيره ، ويكون ماعداً ذلك من قبيل اللهم المرجو فيه العفو ، الذي لا ينحصر الى ذلك اعداد ، فلا قطع على أن جميعها من قبيل واحد ، وقد ظهر وجه انقسامها .

(المنار - ج ٨ م ١٧) المبتدع مستدرك على الشريعة ومراغم له ٥٩٧

(والثالث) ان المعاصي قد ثبت انقسامها الى الصغائر والكبائر، ولا شك ان البدع من جملة المعاصي - على مقتضى الأدلة المتقدمة - ونوع من أنواعها ، فاقضى اطلاق التقسيم أن البدع تنقسم أيضاً ، ولا يخصص وجوها (؟) بتعميم الدخول في الكبائر ، لأن ذلك تخصيص من غير تخصيص ، ولو كان ذلك معتبراً لاستثنى من تقدم من العلماء القائلين بالتقسيم قسم البدع ، فكانوا ينصون على ان المعاصي ما عدا البدع تنقسم الى الصغائر والكبائر ، الا أنهم لم يلتفتوا الى الاستثناء وأطلقوا القول بالانقسام ، فظهر أنه شامل لجميع أنواعها .

فان قيل : إن ذلك التفاوت لا دليل فيه على اثبات الصغيرة مطلقاً ، وإنما يدل ذلك على أنها تفاضل ، فمنها ثقيل وأثقل ، ومنها خفيف وأخف ؛ والخفة هل تنتهي الى حد تعد البدعة فيه من قبيل اللهم ؟ هذا فيه نظر ؛ وقد ظهر معنى الكبيرة والصغيرة في المعاصي غير البدع ؛ وأما في البدع فثبت لها أمران : أحدهما أنها مضادة للشارع ومراغمة له ، حيث نصب المبتدع نفسه نصب المستدرك على الشريعة ، لانصب المكتفي بما حدّه له .

والثاني أن كل بدعة - وان قلت - تشريع زائد أو ناقص ، أو تغيير للأصل الصحيح ؛ وكل ذلك قد يكون على الأفراد ، وقد يكون ملحقة بما هو مشروع ، فيكون قادحاً في المشروع . ولو فعل أحد مثل هذا في نفس الشريعة عامداً لكفر ، اذ الزيادة والنقصان فيها أو التغيير قل أو كثر كفر ، فلا فرق بين ما قل منه وما كثر . فمن فعل مثل ذلك بتأويل فاسد أو برأي غلط رآه ، أو ألحقه بالمشروع ، اذا لم نكفره لم يكن في

حكمه فرق بين ما قل منه وما كثر ، لان الجميع جنابة لا تحملها الشريعة بقليل ولا بكثير .

ويعضد هذا النظر عموم الادلة في ذم البدع من غير استثناء ، فالفرق بين بدعة جزئية وبدعة كلية ، وقد حصل الجواب عن السؤال الاول والثاني .

وأما الثالث فلا حجة فيه لان قوله عليه السلام « كل بدعة ضلالة » وما تقدم من كلام السلف يدل على عموم الذم فيها . وظهر أنها مع المعاصي لا تنقسم ذلك الانقسام ، بل إنما ينقسم ما سواها من المعاصي . واعتبر بما تقدم ذكره في الباب الثاني يتبين لك عدم الفرق فيها . وأقرب منها عبارة تناسب هذا التقرير أن يقال : كل بدعة كبيرة عظيمة بالاضافة الى مجاوزة حدود الله بالتشريع ، الا أنها وان عظمت لما ذكرناه ، فاذا نسب بعضها الى بعض تفاوتت رتبها فيكون منها صغار وكبار ، أما باعتبار ان بعضها أشد عقابا من بعض ، فالأشد عقابا أكبر مما دونه ، واما باعتبار قوت المطلوب في المفسدة ، فكما انقسمت الطاعة باتباع السنة الى الفاضل والأفضل ، لا تنقسم مصالحها الى الكامل والاكمل ، انقسمت البدع لا تنقسم مفسدها الى الرذل والارذل ، والصغر والكبر ، من باب النسب والاضافات ، فقد يكون الشيء كبيرا في نفسه لكنه صغير بالنسبة الى ما هو أكبر منه .

وهذه العبارة قد سبق اليها امام الحرمين لكن في انقسام المعاصي الى الكبائر والصغار فقال : المرضي عندنا أن كل ذنب كبيرة وعظيم بالاضافة الى مخالفة الله ، ولذلك يقال : معصية الله أكبر من معصية العباد .

(المنار - ج ٨ م ١٧) الابتداع ربي للرسول بالخيانة وتقص الدين ٥٩٩

قولا مطلقاً ، الا أنها وان عظمت لما ذكرناه ، فاذا نسب بعضها الى بعض تفاوتت رتبها ، ثم ذكر معنى ما تقدم ؛ ولم يوافق غيري على ما قال ، وان كان له وجه في النظر وقت الاشارة اليه في كتاب الموافقات . ولكن الظاهر يأبي ذلك - حسبما ذكره غيره من العلماء - . والظواهر في البدع لا تأبي كلام الامام اذا نزل عليها - حسبما تقدم - فصار اعتقاد الصغائر فيها يكاد يكون من المتشابهات ، كما صار اعتقاد نفي الكراهية التنزيه عنها من الواضحات .

فليتأمل هذا الموضع أشد التأمل ويعط من الانصاف حقه ، ولا ينظر الى خفة الأمر في البدعة بالنسبة الى صورتها وان دقت ، بل ينظر الى مصادمتها للشريعة ورميها لها بالنقص والاستدراك ، وأنها لم تكمل بعد حتى يوضع فيها ، بخلاف سائر المعاصي فانها لا تعود على الشريعة بتقيص ولا غض من جانبها ، بل صاحب المعصية متصل منها مقر لله بمخالفته لحكمها .

وحاصل المعصية أنها مخالفة في فعل المكلف لما يعتقد صحته من الشريعة ؛ والبدعة حاصلها مخالفة في اعتقاد كمال الشريعة ، ولذلك قال مالك بن أنس : من احدث في هذه الامة شيئاً لم يكن عليه سلفها فقد زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خان الرسالة ، لان الله يقول « اليوم اكملت لكم دينكم » الى آخر الحكاية . وقد تقدمت .

ومثلها جوابه لمن اراد أن يحرم من المدينة وقال : أي فتنة فيها ؟ إنما هي أميال أزيدها . فقال : وأي فتنة أعظم من أن تظن أنك فعلت فعلاً قصر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم - الى آخر الحكاية ، وقد تقدمت

أيضاً. فإذا يصح أن يكون في البدع ما هو صغيرة .
فالجواب أن ذلك يصح بطريقة يظهر ان شاء الله أنها تحقيق في
تشقيق هذه المسئلة ؛

وذلك أن صاحب البدعة يتصور أن يكون عالماً بكونها بدعة وأن
يكون غير عالم بذلك . وغير العالم بكونها بدعة على ضربين ، وهما المجتهد
في استنباطها وتشريعها والمقلد له فيها . وعلى كل تقدير فالتأويل يصاحبه
فيها ولا يفارقه اذا حكمنا له بحكم أهل الاسلام ، لانه مصادم للشارع
مراغم للشرع بالزيادة فيه أو النقصان منه أو التحريف له ؛ فلا بد له من
تأويل كقوله «هي بدعة ولكنها مستحسنة» أو يقول «إنها بدعة ولكنني
رأيت فلانا الفاضل يعمل بها » أو يقربها ولكنه يفعلها لحظ عاجل ،
كفاعل الذنب لقضاء حظه العاجل خوفاً على حظه ، أو فراراً من خوف
على حظه ، أو فراراً من الاعتراض عليه في اتباع السنة ، كما هو الشأن اليوم
في كثير ممن يشار اليه ، وما أشبه ذلك .

وأما غير العالم وهو الواضع لها ، فانه لا يمكن ان يعتقد بها بدعة ،
بل هي عنده مما يلحق بالمشروعات ، كقول من جعل يوم الاثنين يصام
لأنه يوم مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، وجعل الثاني عشر من ربيع الاول
ملحقاً بأيام الاعياد لانه عليه السلام ولد فيه ، وكن عدّ السماع والغناء مما
يتقرب به الى الله بناء على أنه يحلب الاحوال السنية ، أو رغب في الدعاء
بهية الاجتماع في ادبار الصلوات دائماً بناء على ما جاء في ذلك حالة الوحدة ،
أو زاد في الشريعة احاديث مكذوبة لينصر في زعمه سنة محمد صلى الله عليه

وسلم . فلما قيل له : إنك تكذب عليه . وقد قال « من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » قال : لم أ كذب عليه وإنما كذبت له . أو نقص منها تأويلاً عليها لقوله تعالى في ذم الكفار (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ؛ وَإِنْ الظَّنُّ لَا يَفْنَى مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا) فاسقط اعتبار الأحاديث المنقولة بالآحاد لذلك ولما أشبهه ، لأن خبر الواحد ظني ؛ فهذا كله من قبيل التأويل . وأما المقلد فكذلك أيضاً لأنه يقول : فلان المقتدى به يعمل بهذا

العمل ويتني (؛) كاتخاذ الفناء جزءاً من أجزاء طريقة التصوف بناء منهم على أن شيوخ التصوف قد سمعوه وتواجدوا عليه ، ومنهم من مات بسببه ، وكنتمزق الثياب عند التواجد بالرقص وسواه لأنهم قد فعلوه ، وأكثر ما يقع مثل هذا في هؤلاء المنتمين الى التصوف ،

وربما احتجوا على بدعهم بالجند والبسطامي والشبلي وغيرهم فيما صح عندهم أو لم يصح ، ويتركون أن يحتجوا بسنة الله ورسوله وهي التي لا شائبة فيها إذا نقلها العدول وفسرها أهلها المكبون على فهمها وتعلمها . ولكنهم مع ذلك لا يقرون بالخلاف للسنة بحثاً ، بل يدخلون تحت اذيل التأويل ، إذ لا يرضي منتم الى الاسلام بإبداء صفحة الخلاف للسنة أصلاً . وإذا كان كذلك فقول مالك : من أحدث في هذه الأمة شيئاً لم يكن عليه سلفها فقد زعم أن النبي صلى الله عليه وسلم خان الرسالة . وقوله لمن أراد أن يحرم من المدينة : أي فتنة أعظم من أن تظن أنك سبقت الى فضيلة قصر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ الى آخر الحكاية - انها الزام للخصم على عادة أهل النظر ، كأنه يقول : يلزمك في هذا القول كذا .

لأنه يقول قصدت اليه قصداً ، لأنه لا يقصد الى ذلك مسلم ، ولازم المذهب : هل هو مذهب أم لا ؛ هي مسألة مختلف فيها بين أهل الأصول ، والذي كان يقول به شيوخنا البجائيون والمغريون ويرون أنه رأي المحققين أيضاً : ان لازم المذهب ليس بمذهب ، فلذلك اذا قرر على الخصم أنكره غاية الانكار^(١) فاذا اعتبار ذلك المعنى على التحقيق لا ينهض ، وعند ذلك تستوي البدعة مع المعصية صفائر وكبائر ، فكذلك البدع . ثم أن البدع على ضربين : كلية وجزئية ، فأما الكلية فهي السارية فيما لا ينحصر من فروع الشريعة ، ومثالها بدع الفرق الثلاث والسبعين فانها مختصة بالكليات منها دون الجزئيات ، حسبما يتعين^(٢) بعد ان شاء الله .

وأما الجزئية فهي الواقعة في الفروع الجزئية ؛ ولا يتحقق دخول هذا الضرب من البدع تحت الوعيد بالنار ، وإن دخلت تحت الوصف بالضلال ، كما لا يحقق ذلك في سرقة لقمة أو التطفيف بحبة ، وان كان داخل تحت وصف السرقة ، بل المتحقق دخول عظامها وكلياتها كالنصاب في السرقة ؛ فلا تكون تلك الأدلة واضحة الشمول لها ، ألا ترى أن خواص البدع غير ظاهرة في أهل البدع الجزئية غالباً ؛ كالفرقة والخروج عن الجماعة ، وإنما تقع الجزئيات في الغالب كالزلة والفتنة ، ولذلك لا يكون اتباع الهوى فيها مع حصول التأويل في فرد من افراد الفروع ، ولا المفسدة الحاصلة بالجزئية كالمفسدة الحاصلة بالكلية ؛ فعلى هذا اذا اجتمع في البدعة

(١) ما كل لازم للمذهب ينكره صاحبه لو عرض عليه ولذلك جعل بمضمهم الانكار شرطاً لكون لازم المذهب ليس بمذهب وهذا التفصيل هو التحقيق

(٢) لعله يتبين

(المنار-ج ٨ م ١٧) الاصرار على البدعة وانكار أهلها على تاركها ٦٠٣

وصفان - كونها جزئية وكونها بالتأويل - صح أن تكون صغيرة، والله أعلم.
ومثاله مسألة من نذر أن يصوم قائماً لا يجلس، وضاحياً لا يستظل،
ومن حرم على نفسه شيئاً مما أحل الله من النوم أو لذيق الطعام، أو النساء
أو الأكل بالنهار، وما أشبه ذلك مما تقدم ذكره أو يأتي؛ غير أن
الكلية والجزئية قد تكون ظاهرة وقد تكون خفية، كما أن التأويل قد
يقرب مأخذه وقد يبعد؛ فيقع الاشكال في كثير من أمثلة هذا الفصل،
فيعد كبيرة ما هو من الصغائر وبالعكس، فيوكل النظر فيه إلى الاجتهاد اهـ

فصل

وإذا قلنا: إن من البدع ما يكون صغيرة. فذلك بشروط (أحدها)
أن لا يداوم عليها؛ فإن الصغيرة من المعاصي لمن داوم عليها تكبر بالنسبة
إليه، لأن ذلك ناشئ عن الاصرار عليها، والاصرار على الصغيرة يصيرها
كبيرة، ولذلك قالوا: لا صغيرة مع اصرار، ولا كبيرة مع استغفار.
فكذلك البدعة من غير فرق؛ إلا أن المعاصي من شأنها في الواقع أنها
تديصر عليها، وقد لا يصر عليها، وعلى ذلك يذني طرح الشهادة وسخطة
الشاهد بها أو عدمه، بخلاف البدعة فإن شأنها في الواقع المداومة والحرص
على أن لا تزال من موضعها، وأن تقوم على تاركها القيامة، وتنطلق
عليه السنة الملامة، ويرمى بالتسفيه والتجهيل، وينبذ بالتبديع والتضليل،
ضد ما كان عليه سلف هذه الأمة، والمقتدى بهم من الأئمة؛ والدليل
على ذلك الاعتبار والنقل، فإن أهل البدع كان من شأنهم القيام بالنكير
على أهل السنة إن كان لهم عصبية، أو لصقوا بسلطان تجري أحكامه في

٦٠٤ كبر البدعة بالدعوة والاظهار (المنار - ج ٨ م ١٧)

الناس وتنفذ أوامره في الاقطار . ومن طالع سير المتقدمين وجد من ذلك ما لا يخفى .

وأما النقل فما ذكره السلف من أن البدعة اذا أحدثت لا تزيد الا مضيا ، وليست كذلك المعاصي ، فقد يتوب صاحبها وينيب الى الله ؛ بل قد جاء ما يشد ذلك في حديث الفرق ، حيث جاء في بعض الروايات « تتجارى بهم تلك الالهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه » ومن هنا جزم السلف بان المبتدع لا توبة له منها - حسبما تقدم - .

(والشرط الثاني) أن لا يدعو اليها ، فان البدعة قد تكون صغيرة بالاضافة ، ثم يدعو مبتدعها الى القول بها والعمل على مقتضاها فيكون إثم ذلك كله عليه ، فانه الذي أثارها ، وسبب كثرة وقوعها والعمل بها ، فان الحديث الصحيح قد أثبت ان كل من سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئا ؛ والصغيرة مع الكبيرة انما تفاوتها بحسب كثرة الاثم وقلته ، وربما تساوي الصغيرة من هذا الوجه الكبيرة أو تربى عليها ؛

فمن حق المبتدع اذا ابتلي بالبدعة ان يقتصر على نفسه ، ولا يحمل مع وزره وزر غيره ، وفي هذا الوجه قد يتعذر الخروج ، فان المعصية فيما بين العبد وربّه يرجو فيها من التوبة والغفران ما يتعذر عليه مع الدعاء اليها ، وقد مر في باب ذم البدع . وباقي الكلام في المسئلة سيأتي ان شاء الله .

(والشرط الثالث) ان لا تفعل في المواضع التي هي مجتمعات الناس ، أو المواضع التي تقام فيها السنن ، وتظهر فيها اعلام الشريعة . فاما اظهارها في

(المنار - ج ٨ م ١٧) اظهر البدعة وفضلها حيث تقام السنن والشعائر ٦٠٥

المجتمعات ممن يقتدى به أو ممن به ^(١) الظن فذلك من أضر الأشياء على سنة الاسلام ، فانها لا تعدو أمرين : اما ان يقتدى بصاحبها فيها ، فان العوام اتباع كل ناعق ، لاسيما البدع التي وكل الشيطان بتحسينها للناس ، والتي للنفوس في تحسينها هوى ، واذا اقتدى بصاحب البدعة الصغيرة كبرت بالنسبة اليه ، لان كل من دعا الى ضلالة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها ، فعلى حسب كثرة الأتباع يعظم عليه الوزر ؛

وهذا بعينه موجود في صفات المعاصي ؛ فان العالم مثلا اذا أظهر المعصية - وان صغرت - سهل على الناس ارتكابها ، فان الجاهل يقول : لو كان هذا الفعل كما قال من أنه ذنب لم يرتكبه ، وانما ارتكبه لأمر علمه دوننا . فكذلك البدعة اذا أظهرها العالم المقتدى فيها لاحالة ، فانها في مظنة التقرب في ظن الجاهل ، لان العالم يفعلها على ذلك الوجه ، بل البدعة أشد في هذا المعنى ، اذ الذنب قد لا يتبع عليه ، بخلاف البدعة فلا يتحاشى أحد عن اتباعه الا من كان عالما بانها بدعة مذمومة ، فحينئذ يصير في درجة الذنب ، فاذا كانت كذلك صارت كبيرة بلا شك ، فان كان داعيا اليها فهو أشد ، وان كان الاظهار باعثا على اتباع ، فبالدعاء يصير ادعى اليه . وقد روي عن الحسن أن رجلا من بني اسرائيل ابتدع بدعة فدعا الناس اليها فاتبع ، وأنه لما عرف ذنبه عمد الى ترقوته فتقبحا فادخل فيها حلقة ثم جعل فيها سلسلة ثم أوثقها في شجرة فجعل يبكي ويعج الى ربه ، فادعى الله الى نبي تلك الامة ان لا توبة له قد غفر له الذي أصاب . فكيف بمن ضل فصار من أهل النار ؟ .

(١) لعل الاصل « بمن يحسن به الظن »

٦٠٦ انكار مالك البدع في المدينة (المنار-ج ٨ م ١٧)

وأما اتخاذها في المواضع التي تقام فيها السنن فهو كالإهداء اليها بالتصريح، لأن عمل اظهار الشرائع الاسلامية^(١) توهم ان كل ما أظهر فيها فهو من الشمائر، فكأن المظهر لها يقول: هذه سنة فاتبعوها.

قال أبو مصعب: قدم علينا ابن مهدي فصلى ووضع رداءه بين يدي الصف، فلما سلم الامام رمقه الناس بإبصارهم ورمقوا مالكا - وكان قد صلى خلف الامام - فلما سلم قال: من هاهنا من الحرس؟ فجاءه نفسان. فقال: خذا صاحب هذا الثوب فاحبساه. فحبس، فقيل له: انه ابن مهدي، فوجه اليه وقال له: ما خفت الله واتقيته ان وضعت ثوبك بين يديك في الصف، وشغلت المصلين بالنظر اليه، وأحدثت في مسجدنا شيئاً ما كنا نعرفه؟ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم «من أحدث في مسجدنا حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين» فبكى ابن مهدي وآلى على نفسه ان لا يفعل ذلك ابداً في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ولا في غيره. وفي رواية عن ابن مهدي قال: فقلت للحرسين: تذهبان بي الى أبي عبد الله؟ قالان ان شئت، فذهبا اليه. فقال: يا عبد الرحمن! تصلي مستتباً؟ فقلت يا أبا عبد الله إنه كان يوماً حاراً - كما رأيت - فتقل ردائي علي. فقال: الله ما أردت بذلك الطعن على من مضى والخلاف عليه، قلت: الله^(٢). قال خليه.

وحكى ابن وضاح قال ثوب المؤذن بالمدينة في زمان مالك، فارسل اليه مالك فجاءه، فقال له مالك: ما هذا الذي تفعل؟ فقال: أردت أن

(١) هذا قسم حذف أداته. لقنه القسم فخاف على ما لقنه فكأنه قال له: قل والله ما أردت بهذا الطعن الخ فقال: والله. أي ما أردت ذلك (٢) كذا ولعل فيها تحريفاً وسقطاً والمراد ظاهر من القرينة

يعرف الناس طلوع الفجر فيقوموا . فقال له مالك : لا تفعل ، لا تحدث في بلدنا شيئاً لم يكن فيه ، قد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا البلد عشر سنين وأبو بكر وعمر وعثمان فلم يفعلوا هذا ، فلا تحدث في بلدنا ما لم يكن فيه ؛ فكف المؤذن عن ذلك وأقام زماناً ، ثم انه تنحج في المنارة عند طلوع الفجر ، فأرسل اليه مالك فقال له : ما الذي تفعل ؛ قال : أردت أن يعرف الناس طلوع الفجر . فقال له : ألم انهك ان لا تحدث عندنا ما لم يكن ؛ فقال : إنما نهيتني عن التشويب . فقال له لا تفعل . فكف زماناً . ثم جعل يضرب الأبواب ، فأرسل اليه مالك فقال : ما هذا الذي تفعل ؛ فقال : أردت ان يعرف الناس طلوع الفجر . فقال له مالك : لا تفعل ، لا تحدث في بلدنا ما لم يكن فيه .

قال ابن وضاح : وكان مالك يكره التشويب — قال — وإنما احدث هذا بالعراق . قيل لابن وضاح : فهل كان يعمل به بمكة أو المدينة أو مصر أو غيرها من الأمصار ؛ فقال : ما سمعت الا عند بعض الكوفيين والاباضيين .

فتأمل كيف منع مالك من احداث أمر يخف شأنه عند الناظر فيه ببادي الرأي وجعله أمراً محدثاً ، وقد قال في التشويب : إنه ضلال . وهو بين ، لأن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة ، ولم يسامح للمؤذن في التنحج ولا في ضرب الأبواب ، لأن ذلك جدير بان يتخذ سنة ، كما منع من وضع رداء عبد الرحمن ابن مهدي خوف أن يكون حدثاً احده .

وقد أحدث بالمغرب المتسمى بالمهدي تشويبا عند طلوع الفجر وهو قولهم « أصبح لله الحمد » اشعاراً بان الفجر قد طلع ، لإلزام الطاعة ،

ولحضور الجماعة، وللغدو لكل ما يؤصرون به. فيخصه هؤلاء المتأخرون تشويهاً بالصلاة كالأذان. ونقل أيضاً إلى أهل المغرب الحزب المحدث بالاسكندرية، وهو المعتاد في جوامع الاندلس وغيرها، فصار ذلك كله سنة في المساجد إلى الآن، فانا لله وانا إليه راجعون.

وقد فسر الثوب الذي أشار إليه مالك بأن المؤذن كان إذا أذن فأبطل الناس قال بين الأذان والاقامة: قد قامت الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح. وهذا نظير قولهم عندنا: الصلاة - رحمكم الله. وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه دخل مسجداً أراد أن يصلي فيه، فثوب المؤذن، فخرج عبد الله بن عمر من المسجد، وقال: اخرج بنا^(١) من عند هذا المبتدع. ولم يصل فيه. قال ابن رشد: وهذا نحو مما كان يفعل عندنا بجامع قرطبة من أن يفرد المؤذن بعد أذانه قبل الفجر النداء عند الفجر بقوله: حي على الصلاة. ثم ترك - قال - وقيل: إنما غنى بذلك قول المؤذن في أذانه: حي على خير العمل. لأنها كلمة زادها في الأذان من خالف السنة من الشيعة. ووقع في المجموعة أن من سمع الثوب وهو في المسجد خرج عنه كفعل ابن عمر رضي الله عنهما.

وفي المسئلة كلام المقصود منه الثوب المكروه الذي قال فيه مالك إنه ضلال. والكلام يدل على التشديد في الأمور المحدثه أن تكون في مواضع الجماعة أو في المواطن التي تقام فيها السنن، والمحافظة على المشروعات أشد المحافظة، لأنها إذا اقيمت هنالك أخذها الناس وعملوا بها، فكان

(١) يظهر أنه كان معه صاحب قال له ذلك. وهل كان في كلام المصنف تصريح بذلك سقط من النسخين أم لا؟ الله أعلم

(المنار - ج ٨ م ١٧) استصغار البدعة والمعصية يجعلها كبيرة ٦٠٩

وزر ذلك عائداً على الفاعل أولاً ، فيكثر وزره ويعظم خطر بدعته .
(والشرط الرابع) ان لا يستصغرها ولا يستحقرها — وان فرضناها صغيرة — فان ذلك استهانة بها ، والاستهانة بالذنب أعظم من الذنب ؛ فكان ذلك سبباً لعظم ما هو صغير . وذلك ان الذنب له نظران : —
(نظر) من جهة رتبته في الشرط ، ونظر من جهة مخالفة الرب العظيم به ؛
فاما النظر الاول فمن ذلك الوجه يعد صغيرا اذا فهمنا من الشرع انه صغير ،
لانا نضعه حيث وضعه الشرع ؛ وأما الاخر فهو راجع الى اعتقادنا في العمل به حيث نستحرم جهة الرب سبحانه بالمخالفة ، والذي كان يجب في حقنا ان نستعظم ذلك جدا ، اذ لا فرق في التحقيق بين المواجهتين —
المواجهة بالكبيرة والمواجهة بالصغيرة .

والمعصية من حيث هي معصية لا يفارقها النظران في الواقع أصلا ،
لأن تصورهما موقوف عليهما ، فالاستعظام لوقوعها مع كونها يعتقد فيها
انها صغيرة لا يتنافيان ، لانها اعتباران من جهتين : فالعاصي وان تعد
المعصية لم يقصد بتعمده الاستهانة بالجانب العليّ الرباني ، وانما قصد اتباع
شهوته مثلا فيما جعله الشارع صغيرا أو كبيرا ، فيقع الاثم على حسبه ، كما
ان البدعة لم يقصد بها صاحبها منازعة الشارع ولا التهاون بالشرع ، وانما
قصد الجري على مقتضاه ، لكن بتأويل زاده ورجحه على غيره ، بخلاف
ما اذا تهاون بصغرها في الشرع ، فانه انما تهاون بمخالفة الملك الحق ، لان
النهي حاصل ومخالفته حاصلة ، والتهاون بها عظيم ؛ ولذلك يقال : لا تنظر
الى صغر الخطيئة وانظر الى عظمة من واجهته بها .

٦١٠ استصغار البدعة والمعصية يجعلها كبيرة (المنار - ج ٨ م ١٧)

وفي الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حجة الوداع «أي يوم هذا؟» - قالوا: يوم الحج الاكبر. قال - فان دماءكم واموالكم واعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا، لا يبني جان الا على نفسه، ألا لا يبني جان على ولده ولا مولود على والده، ألا وان الشيطان قد يئس ألا يعبد في بلدكم هذا أبدا، ولا تكون له طاعة فيما يحتقرون من أعمالكم فسيرضى به» ^(١) فقلوه عليه السلام «فسيرضى به» دليل على عظم الخطب فيما يستحق.

وهذا الشرط مما اعتبره الفزالي في هذا المقام، فانه ذكر في الاحياء ان مما تعظم به الصغيرة ان يستصغرها - قال - فان الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله، وكلما استصغره كبر عند الله. ثم بين ذلك وبسطه.

فاذا تحصلت هذه الشروط، فاذا ذاك يرجى ان تكون صغيرتها صغيرة، فان تخلف بشرط منها أو أكثر صارت كبيرة، أو خيف ان تصير كبيرة، كما ان المعاصي كذلك، والله أعلم.

*

(١) كذا في نسخة الكتاب. ولا أذكر لاحد روايته بهذا اللفظ. وفي حديث عمرو بن الاحوص عند أصحاب السنن ما عدا ابا داود «ألا ان الشيطان قد أبس أن يعبد في بلدكم هذا أبدا، ولكن سيكون له طاعة في بعض ما تحتقرون من أعمالكم فيرضى بها»

ترجمة الامام الشاطبي

من كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج^(١)

هو ابراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الفرناطي ابو اسحاق الشهير بالشاطبي . الامام العلامة ، المحقق القدوة ، الحافظ الجليل المجتهد ، كان أصولياً مفسراً ، فقيها محدثاً ، لغوياً بيانياً ، نظاراً ثبُتاً ، ورعاً صالحاً ، زاهداً سنياً ، اماماً مطلقاً ، بجاناً مدققاً ، جدلياً بارعاً في العلوم ، من افراد العلماء المحققين الاثبات ، واكابر الأئمة المتفنين الثقات ، له القدم الراسخ والامامة العظمى في الفنون - فقها وأصولاً ، وتفسيراً وحديثاً ، وعربية وغيرها - مع التحري والتحقيق ، له استنباطات جلية ، ودقائق منيفة ، وفوائد لطيفة ، وابحاث شريفة ، وقواعد محررة محققة ، على قدم راسخ من الصلاح والعفة والتحري والورع ، حريصاً على اتباع السنة ، مجانباً للبدع والشبهة ، ساعياً في ذلك مع ثبوت تام ، منحرفاً عن كل ما ينحو للبدع واهلهاء وقع له في ذلك امور مع جماعة من شيوخه وغيرهم في مسائل .

وله تأليف جلية ، مشتملة على ابحاث نفيسة ، وانتقادات وتحقيقات شريفة . قال الامام الحفيد ابن مرزوق في حقه : انه الشيخ الاستاذ الفقيه الامام المحقق العلامة الصالح ، ابو اسحاق . انتهى ، وناهيك بهذه التحلية من مثل هذا الامام ، وانما يعرف الفضل لأهله اهله .

اخذ العربية وغيرها عن أئمة ، منهم الامام المفتوح عليه في فنها مالا طمع فيه لسواه ، بحثاً ، وحفظاً ، وتوجيهاً ، ابن الفخار الألبيري . لازمه الى ان مات ، والامام الشريف رئيس العلوم اللسانية ، ابو القاسم السبتي ، شارح مقصورة حازم ، والامام المحقق اعلم اهل وقته ، الشريف ابو عبد الله التلمساني ، والامام علامة وقته باجماع ، ابو عبد الله المقرئ ، وقطب الدائرة ، شيخ الجلة ، الامير الشهير ، ابو سعيد ابن لب ، والامام الجليل ، الرحلة الخطيب ، ابن مرزوق الجد ، والعلامة المحقق

(١) تأليف أحمد بن أحمد بن عمر اقيت المعروف بابا التكروري ثم التنبكي

المولود سنة ٩٦٣ هـ والمتوفى سنة ١٠٣٢ هـ

المدرس الاصولي ، ابو علي منصور بن محمد الزواوي ، والعلامة المفسر المؤلف ابو عبد الله البلسني ، والحاج العلامة الرحلة الخطيب ابو جعفر الشقوري . ومن اجتمع معه ، واستفاد منه ، العالم الحافظ الفقيه ، ابو العباس القَبَّاب ، والمفتي المحدث ابو عبد الله الحفار ، وغيرهم .

اجتهد وبرع ، وفق الاكابر ، والتحق بكبار الأئمة في العلوم ، وبالغ في التحقيق ، وتكلم مع كثير من الأئمة في مشكلات المسائل من شيوخه وغيرهم ، كالقَبَّاب ، وقاضي الجماعة الفِشْتَالِي ، والامام ابن عرفة ، والولي الكبير ابي عبد الله بن عباد . وجرى له معهم اجاث ومراجعات ، اجلت عن ظهوره فيها ، وقوة عارضته وامامته ، منها مسألة مراعاة الخلاف في المذهب ^(١) فيها له بحث عظيم ، مع الامامين القَبَّاب وابن عرفة . وله اجاث جليلة في التصوف وغيره . وبالجملة فقد دره في العلوم فوق ما يذكر ، وتحليته في التحقيق فوق ما يشهر .

الف تواليف نفيسة ، اشتملت على تهريرات للقواعد ، وتحقيقات لمهمات الفوائد . منها شرحه الجليل على الخلاصة في النحو ، في اسفار أربعة كبار ، لم يؤلف عليها مثله بحثا وتحقيقا فيما اعلم . وكتاب (المواقفات) في أصول الفقه سماه « عنوان التعريف باصول التكليف » كتاب جليل القدر جدا لا نظير له ، يدل على امامته ، وبعد شأوه في العلوم ، سيما علم الاصول . قال الامام الحفيد بن مرزوق : كتاب المواقفات المذكور ، من انبل الكتب ، وهو في سفرين . وتأليف كبير نفيس في الحوادث والبدع في سفر في غاية الاجادة ، سماه (الاعتصام) وكتاب (المجالس) شرح فيه كتاب البيوع من صحيح البخاري . فيه من الفوائد والتحقيقات ، ما لا يعلمه الا الله . وكتاب (الافادات والانشادات) في (كراسين فيه طرف وتحف ، وملح ادبيات وانشادات . وله ايضا كتاب (عنوان الاتفاق ، في علم الاشتقاق) وكتاب (أصول النحو) ، وقد ذكرهما معا في شرح الألفية . ورأيت في موضع آخر انه اتلف الاول في حياته وان الثاني اتلف ايضا . وله غيرها ، وفتاوي كثيرة

ومن شعره لما ابتلي بالبدع :

(١) اشار الى هذه المسألة في المقدمة الثالثة عشرة من كتاب المواقفات

بليت يا قوم والبلوى منوعة بمن اداريه حتى كاد يردني
دفع المصرة لا جلبا لمصلحة فحسبي الله في عقلي وفي ديني

انشدها تلميذه الامام ابو يحيى بن عاصم له مشافهة .

اخذ عنه جماعة من الأئمة كالامامين العلامتين ، ابي يحيى بن عاصم الشهير ،
واخيه القاضي المؤلف ابي بكر بن عاصم ، والشيخ ابي عبد الله البياني ، وغيرهم .
وتوفي يوم الثلاثاء ثامن شعبان سنة تسعين وسبعائة ولم اقف على مولده رحمه الله .
(فائدة) وكان صاحب الترجمة ممن يرى جواز ضرب الخراج على الناس ،
عند ضعفهم وحاجتهم ، لضعف بيت المال عن القيام بمصالح الناس ، كما وقع
للشيخ الملقب في كتاب الورع . قال : توظيف الخراج على المسلمين من المصالح المرسله ،
ولا شك عندنا في جوازه ، وظهور مصلحته في بلاد الاندلس في زماننا الآن .
لكثرة الحاجة لما يأخذه العدو من المسلمين ، سوى ما يحتاج اليه الناس ، وضعف
بيت المال الآن عنه ، فهذا يقطع بجوازه الآن في الأندلس ، وانما النظر في القدر
المحتاج اليه من ذلك ، وذلك موكل الى الامام ، ثم قال اثناء كلامه : ولعلك تقول
كما قال القائل لمن اجاز شرب العصير بعد كثرة طبخه وصار رُبًّا : احللتها
والله يا عمر . يعني هذا القائل احللت الخمر بالاستجرار الى نقص الطبخ ، حتى تحل
الخمر بمقالك ، فاني اقول - كما قال عمر رضي الله عنه : والله لا احل شيئا حرمه الله ،
ولا احرم شيئا احله ، وان الحق احق ان يتبع ، (ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه)
وكان خراج بناء السور في بعض مواضع الاندلس في زمانه موظفا على
اهل الموضع ، فسئل عنه امام الوقت في الفتيا بالاندلس الاستاذ الشهير ابو سعيد
ابن لب ، فأفتى انه لا يجوز ولا ينوغ ، وافق صاحب الترجمة بسوغه ،
مستندا فيه الى المصلحة المرسله ، معتمدا في ذلك الى قيام المصلحة ، التي ان لم
يقم بها الناس فيعطونها من عندهم ضاعت . وقد تكلم على المسئلة الامام الغزالي
في كتابه ، فاستوفى . ووقع لابن الفراء في ذلك مع سلطان وقته وفقهائه كلام
مشهور ، لا نطيل به .

وكتب جوابا لبعض اصحابه في دفع الوسواس العارض في الطهارة وغيرها

« وصلني جوابكم فيما تدفعون به الوسواس ، فهذا امر عظيم في نفسه ، وانفع شيء فيه المشافهة ، واقرب ما اجد الآن ، ان تنظروا من اخوانكم من تدلون عليه وترضون دينه ، ويعمل بصلب الفقه ، ولا يكون فيه وسوسة ، فتجعلونه امامكم على شرط أن لا تخالفوه ، وان اعتقدتم ان الفقه عندكم بخلافه ، فاذا فعلتموه رجوت لكم النفع ، وان تواظبوا على قول « اللهم اجعل لي نفسا مطمئنة توقن ببقائك ، وتقتنع بعبائك ، وترضى بقضائك ، وتخشاك حق خشيتك ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم » فانه نافع للوسواس ، كما رأيته في بعض المنقولات .

وكان يقول : لا يحصل الوثوق والتحقيق بشأن الرواية في الأكيال المنقولة بالأسانيد ، واختبرت ذلك فوجدت الأكيال مختلفة ، متباينة الاختلاف ، وهي ذوات روايات ، فالكيل الشرعي تقريبا منقول عن شيوخ المذهب ، يدركه كل احد ، حفنة من البر أو غيره بكتلتا اليدين مجتمعين ، من ذوي يدين متوسطتين ، بين الصغرى والكبرى ، فالصاع منها اربع حفنات ، جربته فوجدته صحيحا . فهذا الذي ينبغي ان يعول عليه ، لانه مبني على اصل التقريب الشرعي ، والتدقيقات في الامور غير مطلوبة شرعا ، لانها تنطع وتكلف ، فهذا ما عندي .

ومن كلامه : اما من تصف وطلب المحتملات ، والغلبة بالمشكلات ، واعرض عن الواضحات ، فيخاف عليه التشبه بمن ذمه الله في قوله (فاما الذين في قلوبهم زيغ) الآية .

وكان لا يأخذ الفقه الا من كتب الاقدمين ، ولا يرى لأحد ان ينظر في هذه الكتب المتأخرة ، كما قرره في مقدمة كتابه المواقفات وترد عليه الكتب في ذلك ، من بعض اصحابه ، فيوقع له : واما ما ذكرتم من عدم اعتمادى على التأليف المتأخرة ، فليس ذلك مني محض رأي ، ولكن اعتمدته بحسب الخبرة عند النظر في كتب المتقدمين مع المتأخرين كابن بشير ، وابن شاس ، وابن الحاجب ، ومن بعدهم ، ولان بعض من لقيت من العلماء بالفقه ، اوصاني بالتحامي عن كتب المتأخرين ، واتى بعارة خشة ولكنها محض النصيحة ، والتساهل في النقل عن كل كتاب جاء لا يحتمله دين الله . ومثله ما اذا عمل الناس بقول ضعيف ، ونقل عن بعض

(المنار - ج ٧ م ١٧) الجنسيات في المملكة العثمانية . عصبية الترك ٦١٥

الأصحاب ، لا تجوز مخالفته ، وذلك مشعر بالتساهل جدا ، ونص ذلك القول لا يوجد لاحد من العلماء فيما اعلم .

والعبارة الخشنة التي اشار اليها ، كان ينقلها عن صاحبه ابي العباس القَّبَاب انه كان يقول في ابن بشير وابن شاس : افسدوا الفقه . وكان يقول : شأني عدم الاعتماد على التقاييد المتأخرة . اما للجهل بموثفيها او لتأخر ازمتهم جدا ، فلذلك لا اعرف كثيرا منها ولا اقتنيته ، وعمدي كتب الأقدمين المشاهير . ولتقتصر على هذا القدر من بعض فوائده .

الجنسيات في المملكة العثمانية

٢

بيننا في المقالة الاولى من هذا البحث ان الحكومة العثمانية الاتحادية تركت في طورها الاخير عقاب من يلهمج بالعرب والعربية من اصحاب الجرائد العربية وغيرهم ، وان العرب لم يغفلوا في إحياء الجنسية العربية كما غلت الجمعيات والجرائد التركية ، التي جاهرت بالدعوة الى كل شيء في الدولة تركيا . بالقول والفعل ، وهجر اسم «العثمانية» ولم نسمع لاحد من كتاب الترك صوتا في انكار هذا الغلو والانتصار للجامعتين الاسلاميه والعثمانية على التركية الا لعلي بك كمال ، فقد كتب في جريدة (بيام) ردا على أولئك الغلاة بين فيه ان الحياة التركية ، لا تقوم الا بالجامعة العثمانية السياسية ، وان المجاهرة بمصر كل شيء في الترك والتركية يبعث العرب والكرد وغيرهم من العناصر العثمانية الى مثل هذه الدعوة فلا يبقى للترك شيء . واشتدت المناظرة بينه وبين (اقچورا) وغيره من غلاة الجنسية التركية حتى انتهت الى السباب والشتم وكان مما كتبه (اقچورا) في (تورك يوردي) بالاستانة في اوائل ربيع الآخر من هذا العام ما ترجمته بالاختصار والاجمال :

«يجب ان نعود الى الحقائق فنقررها . ما العثمانية ؟ ولماذا لا تقول التركية ؟ أليست العثمانية نسبة الى عثمان التركي ؟ ان الحقيقة تغلب الخيال ، ومن الحال العقلي ان تظل هذه العناصر المتباينة مرتبطة بعضها ببعض وراء ستار وهمي ، وتحت اسم خلق بال !

٦١٦ الجنسيات في المملكة العثمانية . عصبية الترك (المنار - ٨ م ١٧)

« يجب علينا مادام في استطاعتنا الحياة ان نعمل الى الجيش والاسطول والعلوم والآداب والشرائع والقوانين وكل شيء فنصبغه بالصبغة التركية المحضة (ليت شعري هل تدخل الشريعة الاسلامية في هذه الشرائع التي عناها ام هم في غنى عنها لان الله تعالى يقول « إنا ازلناه حكما عربيا » ؟)

« يجب ان نعلم اننا من أمة ظهر فيها قواد اعظم من نابليون . وعظماء اشهر من يوليوس قيصر ، وشعراء اكبر من هيفو . وان في استطاعتنا ان نفعل ما يفعله الجرمان والسكسونيون لحياة قومهم ، فلا ينبغي ان نظل مقيدين بالارواح والخرافات الماضية »

وقد انهزم علي كمال بك امام حملات الغلاة واضطر الى مجاراتهم . واننا لنرى اشد كتاب العرب لهجا بالعربية لا يعدون غلاة بالنسبة الى الكتاب المعتدلين من الترك بل يعدون مقصرين ، وان جماعة حزب اللامركزية لم يجعلوا مسألة الجنسية العربية من موضوع حزبهم ، الا اذا كانت المحافظة على اللغة العربية بين اهليها يعد دعوة الى الجنسية العربية . ولهذا انكرنا على ذلك الكاتب العربي رميهم بالعصبية الجنسية التي ذمها دما إسلاميا ، وجعلها هادمة للإسلام اكان الإسلام الذي دخل فيه يموت بحياة لغته العربية ، ويحيا باللغة التركية !

استدلنا بتخصيص الحزب بهذا الذم وبسكوته عن غلاة العصبية التركية ، على انه لم يكتب ما كتب الا تزلفا وتقافا ، وجعل اسم الدين الاسلامي شبكة لصيد المال والجاه . ولو أنكر على أولئك الغلاة والمعتدلين في العصبية الجنسية ، واتبع هواه باضافة اللامركزيين اليهم ، واشرا كه معهم ، لما اعتقدنا فيه كل هذا الاعتقاد

سلكت الجماعات العربية كلها مسلك الاعتدال فيما تطلبه لامتها من الدولة وفيما تنصح به للامة ، الا ما عرض لجماعة البصرة ، فقد كان في بعض كلامها شيء من الشدة ، ثم كان زعيمها السيد طالب بك النقيب ساعد الحكومة وعضدها في عقد الوفاق بينها وبين الامير عبد العزيز بن سعود أمير نجد ، وفي غير ذلك مما عهدته اليه من خدمتها في تلك البلاد ، وقد تبرع هو ووجهاء البصرة للاسطول وغير الاسطول بمبالغ قلما رأت مثلها الدولة من بلد آخر . على انها لم تجيهم الى شيء مما طلبوه من الاصلاح . فكان ذلك دليلا على ان أشد العرب في ولايات الدولة شكيمة ، وأقوام عصبية ، لا يني ولا يقصر في خدمتها ، اذا هي أظهرت الثقة به ، وعهدت اليه بعمل عمله .

الجنسية اللبنانية

نعم ان بعض الجرائد والجمعيات اللبنانية ، قد غلت في الدعوة الى الانسلاخ من كل صفة عثمانية ، والاستقلال بجنسية لبنانية لاعربية . فلبنان يتمتع باستقلال داخلي لا يشاركه في مثله جبل من الجبال ، ولا سهل من السهول ، ولا ولاية ولا مملكة في الارض ، حتى قال الدكتور يعقوب صروف - وهو من يفتخر لبنان بمكانه من العلم والفلسفة ومعرفة شؤون العالم - : إن كل تغيير يطرأ على نظام لبنان يكون شراً ، اذ لاخير مما هو عليه . ولكن كثيراً من اللبنانيين لا ينظرون الى هذه النعمة بالعين التي ينظر بها هذا العالم الخبير ، فترى صراخ شكواهم قد ملا فضاء امريكا الشمالية والجنوبية ومصر ، وتقلت الجرائد صدهاء الى كل قطر يوجد فيه لبنانيون أو سوريون . فمنهم من يدعو الى الاستقلال التام ، ومنهم من يدعو الى احتلال فرنسا للبلاد . ولهم عدة جمعيات سياسية يشترك فيها ألوف منهم في الوطن وفي ديار الهجرة من مصر الى أوربة وامريكا وغيرها من الممالك .

وقد قرأنا كثيراً من مقالاتهم وقصائدهم وانشيدهم الاستقلالية فرأيناهم يفخرون فيها بعراقه هذا الجبل في الاستقلال ، وامتناعه على الفاتحين من جميع الامم والاجيال ، أي فهم لا يطلبون الآن ، الا الاستقلال الذي كانوا متمتعين به في كل زمان . وقد جددوا لانفسهم علماً وطوابع بريد ، ومنهم من يختار الاستقلال تحت حماية فرنسا والاستقلال بعلمها . وقد عرف أهل الخاقين ما كان من مبالغة أهل الجبل في الجفاوة بضباط الاسطول الفرنسي والمظاهرات الولائية لهم عند ما زاروا بطرك الموارة وبعض البلاد منذ اشهر ، اذ كان الاسطول في مياه بيروت . وبلي ذلك ما كان لمسيو جورج يكو قنصل فرنسا عند ما زار لبنان مصاحباً لمسيو مورسي بارس احداً أعضاء مجلس النواب الفرنسي . وهذا النوع من الاحتفالات والمظاهرات قد تكرر ، وتكررت الوعود من فرنسا بأمانة الجبل ما يريد .

لسنا نريد الاستقصاء التاريخي في هذه المسائل فنفصل القول فيه ، ولا الانتقاد على الغلو والشذوذ الذي كان يشغل ذلك ، مما لا يهد له نظير للاجانب في مملكة من الممالك ، فتنبع من ذلك ما قيل وما كتب ، وما انتقده بعض المسلمين في جرائد بيروت على ذلك وما رد به اللبنانيون على هؤلاء . وانما نريد أن نبين بالاجمال ان اللبنانيين منهم المعتدلون فيما يتقنون من الدولة وما يطلبون لبلادهم ، ومنهم الغلاة . وأن ذلك الكاتب العربي المدافع عن الجامعة العثمانية أو الجامعة الاسلامية ، المعادي للجنسية العربية والموضعية (كالبنيانية) لم يكتب كلمة في انتقاد هؤلاء الغلاة من

أبناء وطنه ، وأبن منهم مؤسسو حزب اللامركزية ، الذين لم يدخلوا حزبهم في باب مباحث المسألة الجنسية .

وأنا ثبت ما قلناه عن اللبنانيين أولاً بنشر ماجاء في جريدة الهدى التي تصدر في نيويورك من مطالب جمعية النهضة اللبنانية التي يرأسها مدير تلك الجريدة وهذا نصه :

من مبادئ النهضة اللبنانية ومنازعتها

« لكل امرئ من دهره ما تعودا » وما تعودناه ان نصون الوعد فلا نخلفه ، والعهد فلا نخفّره ، وان نكث الناكثون ، وعيث العاثون ، مستأثرين بأيام ، نرجو ان تنقضي على سلام ، فلا يلثم فيها احد ، بما يحثه من الفيش والفتد .

أرسلنا في « الاغراض من سياحتنا » كلمة ، وترمل الآن في بعض مبادئ النهضة اللبنانية أخرى نحن دون احد من الناس المسئولون عنها .

كنا في رحلتنا بنشر بهذه المبادئ بلسانتنا ، ونحن الآن نبشر بها بقلمنا ، الى ان تعود الخطابة ، فتنب عن الكتابة .

اللبنانيون مظلومون وظالمون - مظلومون لان السلطة ضعيفة ضاغطة وجائرة ، وظالمون لانهم وهم تحت الضغط والجور يتناذرون ويتطاحنون مؤثرين الخصوصيات على العموميات . فيجب على خدمتهم - ونحن منهم - التجرد في النصح لهم ، والدعوة الى ما فيه صلاحهم ونجاحهم ، ووضع مبادئ يقوم عليها حزبهم السياسي الاكبر المدهو « النهضة اللبنانية » .

قد يقوم من اللبنانيين انفسهم من يناكرو ويصادر ، ويشاكس ويبعاكس ، ولكن لبنانية المناوئين هؤلاء غير صحيحة ، لقيامها على التعصب والحزب والندكية والقواية . والحق ظافر ، والاخلاص ظاهر .

من مبادئ النهضة اللبنانية

١ جمع اللبنانيين بدين الوطنية الشامل الكامل الفاضل « وتمزيق الانجيل الطائفة اسلم انجيل المسيح » وما يقال عن الانجيل يقال عن القرآن والتلمود وكل كتاب مقدس عند اهل . إلا ان ذلك لا يعني الكفر ولا التعطيل ، فليعبد الناس إلههم في كنيستهم وكنيسهم وجامعهم وخلوتهم وتحت افياء الشجر وظلال الصخور اذا شاؤوا وانما فليجتمعوا (?) بدين الوطنية الواحد وهم المفلحون .

٢ استقلال المهاجرين « بنهضتهم اللبنانية » ما زال الاصلاح لا يتم الا عن طريق الهجرة وعلى هم المهاجرين . الا ان هذا الاستقلال لا يعني الانفصال ، بل

(المنار - ج ٨ م ١٧) ما نشر من مقاصد جمعية النهضة اللبنانية ٦١٩

توحيد قوة المهاجرين ما بين القطبين وجعلهم قوة واحدة تسمى للإصلاح سعيًا مجردًا صادقًا، إلى أن ينفلت المتخلفون من قيود الوظائف، ويكشفوا عنهم غيوم السفاسف، التي لا يزال حتى في المهجر أثر مجلوب (?)

٣ - طلب أمير اجنبي من دول أوروبا الست الضامنة استقلال لبنان تكون غايته غايتنا ومصالحته ومصالحتنا، ولتتنا لغته ولغة اولاده، فلا يكون دخيلاً لا يشعر بشعورنا، ولا يهتم وهو المرجع الأكبر في الجبل أن يتعلم لغة الناس فيه ليكون حكمه مقبولاً وقضاؤه مقبولاً - أمير اجنبي يكون لنا ما كان مثله لرومانيا وبلغاريا واليونان وألبانيا ولا تعود تهمه « المدة » تنقضي وينقضي الاهتمام بعد الابتداء بها بإيام - الشعب الخامل الغافل يرضى بحاكمه وقاضيه دخيلاً اعجمياً لا يشعر معه ولا يفهم لغته ليقضي بالعدل، ولا يهتم إلا بتناول المرتب وربما الرشوة (?) مباشرة وبواسطة، وتفريق الناس لاتخاذ الاحزاب منهم. وقد يكون وضيعاً قبل أن يصير حاكماً بلقب كبير ومرتب كبير وتفطرس كبير وعمل صغير.

٤ - ارجاع لواء لبنان إليه فإن لكل شعب على شيء من الاستقلال راية او علماً او لواء الا لبنان الذي كان منذ بدء التاريخ على كثير من الاستقلال حتى وقوع حوادثه الاخيرة التي زعم انه نال بعدها حكماً ذاتياً لا نرى له اثرًا

٥ « تمديد لبنان بعد تخلصه » أي إعادة حدوده الاولى والطبيعية إليه ما بين نهري القاسمية والعاصي. ومعنى ذلك ان تكون حدوده كما كانت على عهد امرائه الاصلاء من القاسمية الى جبل الشيخ الى لبنان الشرقي الى حمص فالنهر الكبير وهي حدود تناول بيروت وطرابلس وصيدا والسهول المحيطة به - اللبنانيون لا يطلبون التوسع بهذه المطالب بل إعادة الحدود التي انتزعها المنتزعون اليهم

٦ - إعادة الجمارك والبريد والبرق الى لبنان لان الدولة « ضمتها من لبنان ضمانة » ولكنها لم تنقيد بشروط الضمان ولم تدفع الى لبنان ما هو من حقوقه ولكل صاحب ملك حق باستعادة ملكه الذي لا يدفع الضامن ضمانه او المستأجر اجرة، فضلاً عن ان اللبنانيين لم يطلبوا المرافىء لتكون بغير جمارك، ولا البريد ليظل عمال الاتراك عابثين ومتلاعبين به و باقدس اسراره وغير حافلين بغير سرقة الحوالات المالية حتى من الكتب المضمونة وبمصادرة الصحافة الحرة لئلا يستفيق الشعب من غفلته

٧ - جعل كل قدم تكسر عليها امواج البحر المتوسط من شواطئ لبنان مرفأً له اذا شاء اللبنانيون عدم الاكتفاء بمجونة والنبي يونس .

٨ - اطلاق حرية الفكر والخطابة والكتابة وانشاء الجمعيات اذ لا يوجد في نظام لبنان ما يحول دون ذلك « لولا انتصاب التماثيل الشعبية المحركة بزنا برك (?) الما رب

٦٢٠ ما نشر من مقاصد جمعية النهضة اللبنانية (المنار - ج ٨ م ١٧)

والمفاسد في مجلس ادارة لبنان » - ان مجلس ادارة لبنان هو المجلس المشرع في الاصل ويجب ان يكون الاكفاء دون سواهم فيه لا ان يجاز القمار، الذي هو على كل شعب متمدن عار، لمجرد ان اعضاء مجلس الادارة مقمرون ... - ان حرية الصحافة ضرورية للبنان الا اذا رضي مجلس الادارة بان يكون خائناً متلاعباً خوفاً من الانتقاد وعملاً بالاستبداد ولكن كم يطول هذا الوقت ... - يجب ان يكون لبنان في الشرق مثل سويسرا في أوروبا فهل تحرك « التماثيل » لابقاء آثار وطنية لا آثار عار واقدار !!!

٩ اقامة مندوب في أوروبا يمثل اللبنانيين ويطالب بحقوقهم ولا يكون له اهتمام بغير مفاوضة الدول الضامنة استقلال لبنان ومفاوضة وزاراتها الخارجية بكل ما يحتاج اليه الجبل

١٠ اقامة « رقيب » على الحكومة اللبنانية في نفس لبنان ينصر الاكفاء المخلصين للوطن ويصادر الادنياء الخونة فيه وينشئ الفروع للنهضة في كل قضاء ومديرية وبلدة ويكون الحزب من ورائه يشد أزره وأزر كل مندوب أمين .

١١ ما زالت اكثرية المهاجرين من اللبنانيين فيجب (?) ان يكون القناصل في كل مهجر من المهاجرين اللبنانيين او يستغنى عنهم وتفاوض قناصل الدول الضامنة في امر حماية اللبنانيين ومصالحهم .

١٢ انشاء مدارس عمومية في لبنان تعلم فيها لغة البلاد قبل سائر اللغات وتنصرف فيها الهمم الى تعليم الصناعة والتجارة والزراعة والتعدين وغير ذلك مما يحتاج اليه اللبنانيون ويجب ان يوضع للبنان تاريخ صادق وخريطة صحيحة لمدارسه العمومية. والهدى الذي يقترح هذا الاقتراح يقوم بنفقات الطبع فلا نطل نتعلم تواريخ الامم العربية وحدودها ونجهل تاريخنا وحدود بلادنا

١٣ وضع قانون عام للنهضة اللبنانية لا يجوز لاي فرع منها الزيادة عليه او الحذف منه الا في الترتيبات المحلية التي لا علاقة لها بالمبادئ ويجب ان يكون المركز الرئيسي للولايات المتحدة وكندا والمكسيك وجزائر الهند الغربية وبعض الجمهوريات اللاتينية واحداً في نيويورك اما في سائر المهاجرين فيجب ان يكون النظام واحداً باستقلال كل بلاد بنهضتها وفروعها بشرط التقيد « النظام الواحد » والاشتراك في العمل الواحد على حد ما هي الولايات من « مركز الاتحاد » او لمقاطعات من العاصمة (??)

١٤ اصدار كتاب كل عام من اقلام ادياء النهضة اللبنانية في كل بقعة من العالم تكون مواضيعه الاصلاح والتربية والسياسة والاجتماع والتعليم وفروعه وغير ذلك

(المنار- ج ٨ م ١٧) ما نشر من مقاصد جمعية النهضة اللبنانية ٦٢١

مما تدعو اليه الحاجة ويجب ان تكون اسماء الاعضاء وبيان الدخل والخرج في آخر هذا الكتاب مع قانون النهضة المعدل .

١٥ تعديل قانون النهضة اللبنانية عند التثام كل مؤتمر تعقده يكون مؤلفا من نواب كل فرع مستقل او مرتبط في مدينة متوسطة ومواقفة للجميع وقبل انتهاء مدة المتصرف بسنة (??)

١٦ من حق كل مشترك في النهضة اللبنانية التصويت لمرشحي المركز الرئيسي مباشرة لمن كان غير منضم الى فرع او بواسطة الفرع الذي يكون منه ويعلن الترشيح مقدما

١٧ للمرأة الحقوق الوطنية بالانضمام الى النهضة اللبنانية وبانشاء الفروع لها او بالاقتابات عموما (?)

١٨ السعي مع الممولين لانشاء الشركات على اختلافها لا تكون النهضة فيها الا منشطة (?) وتكون كل شركة مستقلة ادارتها ونظامها - الشعب الذي لا يتحد في الشركات لا يستطيع الاتحاد في غيرها وبكل اسف نقول انه لا يكون ارتقى كثيرا .

١٩ العدول عن التبرعات للمشاركة المدعوة في الوطن عمومية وهي خصوصية لم يتم منها حتى الآن مشروع واحد على ما نعلم بعد جمع عشرات ألوف الدولارات ولا سيما ان (?) فضل المهاجرين غير معترف به واذا كان من اعتراف فبتفوق عليهم (?)

وبذكر واجب لا ندري مصدره قبل الاعتراف المخلص بالمساواة (?) - المهاجرون ساعدوا كل مشروع وهمي في الوطن منذ ثلاثة عقود من السنين ولم يساعدوا المتخلفون بشيء حتى في اصلاح البلاد فمن العدل ان يعدلوا عن الاستئثار الى الخدمة الوطنية المتساوية وامام المهاجرين واجبات كثيرة من الضروري القيام بها - يجب

العدول عن التبرعات الى ان يتم المشروع الوطني على الاقل

٢٠ تكافل المهاجرين والمتخلفين في كل ما يعود على الوطن بالاصلاح والرقى

٢١ الاهتمام بالجندية اللبنانية اهتماما تنظر فيه النهضة

٢٢ بذل العناية التامة لانجاح قلم الهجرة وصون اموال واعراض المهاجرين الجدد

٢٣ اذا كان المهاجرون مطالبين بالاموال الاميرية وسائر الضرائب فمن الواجب ان يكون لهم رأي في حكومتهم واعمالها واقتاباتها .

٢٤ عضو مجلس الادارة « شيخ مشرع » او « سناور » فمن العار على البلاد ان يكون غير متعلم ولا متهذب ان لم يكن متشرعا

٦٢٢ ما نشر من مقاصد جمعية النهضة اللبنانية (المنار— ج ٨ م ١٧)

٢٥ ترمي النهضة اللبنانية الى انشاء مدرسة داخلية في امريكا الشمالية لاحيا اللغة العربية و بهاء الوطنية ولتنشئة الصغار على المبادئ القويمة واهم ما ترمي اليه حل مدارس الوطن على تعديل انظمتها فلا ينفق التلميذ ربع عمره قاتلا ويخرج بعد هذه الخسارة غافلا

٢٦ جعل لبنان مصيفا جميلا وقيما بالآداب والاخلاق مثله بالمناظر والماء والهواء (١)

٢٧ تحويل افكار المهاجرين عن اقامة الدور والقصور— الا ما كان ضروريا—

الى انشاء المطامل والعناية بالزراعة والصناعة واستثارة دفائن كنوز لبنان

٢٨ تعليم الاقتصاد على انواعه وترويج المصنوعات والمستغلات الوطنية

٢٩ حثول اعضاء النهضة اللبنانية دون الخلاقات الطائفية والقومية والبلدية

والفصل بين المختلفين منهم في محاكم النهضة الخصوصية الا اذا عجز التوفيق

٣٠ انشاء جريدة رسمية مساهمة في كل بلاد فيها مركز رئيسي للنهضة وانشاء

مجلة نسائية عند الحاجة والمقدرة

٣١ الاهتمام بالغرف التجارية الضرورية للمهاجرين

٣٢ السعي لاقامة رؤساء اساقفة في المهاجر للطوائف النائلة امتيازات في الوطن

لصون الشرف ومنع الاستئثار اسوة بالطوائف الممتازة في أوروبا

٣٣ مساعدة نوابغ اعضاء النهضة او نوابغ ابنائهم

٣٤ عدم مساعدة الكنائس الا اذا كان لها مدارس في الوطن والمهجر

٣٥ التفاهم مع رؤساء الاديان لخدمة الشعب واقادته بتنفيذ غاية الواقفين من

الاقواف دون تعرض لاي حق راهن لهم

٣٦ يجب اقامة وكلاء للنهضة حيث لا يوجد فروع او حيث يكون انشاء

الفروع مبددا لا موحدا

٣٧ مرتب الدخول دولار واحد في السنة يجب ايصاله الى المركز الرئيسي من

كل عضو في النهضة الا اذا شاء العضو التبرع. اما الفروع فلها ان تتفاهم مع الاعضاء

على طرائق القيام بالنفقات المحلية (٢)

٣٨ ينتخب نائب الرئيس وامناء الصندوق والمديرون من التجار اما الرئيس

فيجب ان يكون غير تاجر صوتا لحقوق مصالح سائر التجار

٣٩ لا يقبل الاممي— الذي لا يحسن القراءة— عضوا الا في السنين الخمس بعد

إعداد القانون الاساسي ولا يقبل غير المستقيم على الاطلاق

(المنار - ج ١٧م ٨) ما نشر من مقاصد جمعية النهضة اللبنانية ٦٢٣

٤٠. يجب ترغيب الشبان في تعليم الصناعات والفنون استعدادا لخدمة الوطن بما يكونون تعلموه

٤١. يعتبر مفشي اسرار الجمعية « خائنا » ويطرد بعد المحاكمة

٤٢. لا يقبل عضو في النهضة كل (?) من يكون منتظما في سلك جمعية في مبادئها ما يخالف مبادئ النهضة اللبنانية

٤٣. للجمعية شارة وكلمة تعارف وقوانين تعرف من النظام العمومي بعد طبعه

٤٤. تسمى النهضة اللبنانية لاهياء ذكر النوايح في العلم والوطنية من رجال ونساء بطبع نتائج قرائحهم واقامة تماثيل للعظماء منهم

٤٥. من مساعي النهضة اللبنانية انشاء المتاحف الوطنية وصون كنوز الحفريات والتاديات وحفظ كل ما يهتم القوم الراقي (?) بحفظه

٤٦. يجب ان يكون لنا « جمعية علماء » تبذل منتهى العناية باحياء اللغة والفنون الجميلة ومنها تتفرع فروع العلوم والتاريخ والجغرافيا وغير ذلك

هذا هم ما مر في خاطرننا من المبادئ والمنازع التي تقبل المسؤولية عليها دون احد من الناس ولنا في اكثر هذه البنود كلام تبسط فيه ونرجو ان يكون عند صادق الوطني مقبولا

الا اننا لاندعي بان ما جئنا به يجب ان يعتبر فصل الخطاب وانما اردنا ان نوقف الشعب على اهم من مرامي هذا الحزب الا كبر المدعو نهضة لبنانية وهو حزب لم يظهر مثله حتى يومنا هذا في العالم العربي ولا انضوى تحت لواء اي جمعية عربية المدد المنضوي تحت لوائه

في كل مصر وقطر انصار لهذا الحزب لا نعلن اسماء جميعهم لحوائل سياسية ونؤكّد للبنانيين اننا بعد سنة واحدة نصبح ٢٥ الفا في المهاجر وحدها فن كان مؤمنا بكتاب اللبنانية الشريف فليحمل لواءه بالاخلاص خفاقا، وينشر تعاليمه بالوطنية نطقا، والفوز للمجاهدين اه

(المنار) نشرنا هذه المقالة بحرف وفيها ووضعنا بجانب بعض المفردات والجل علامة (?) للإشارة الى ما فيها من خطأ أو ضعف لفظي أو معنوي (ولولا ان استحسننا انشاء الكاتب لما أشرنا الى ذلك). ويظهر منها ان هذه الجمعية سياسية علمية اقتصادية ادبية خيرية سرية جهرية. وفي هذه المواد المنشورة تعارض وتهافت، يعني بعضها بملكة مستقلة، كما بني بعضها على تابعة مهمة. ولعل رئيس النهضة البارع يصححها ويرتبها بعد اعادة النظر فيها. ولا نسأله عن القوة التي يؤسس المهاجرون بها هذا الملك العظيم

ولنزد ما تقدم بيانا بنقل النبذة التالية من جريدة ابي الهول التي تصدر في البرازيل وهي :

أنا لبناني

ليقرأها اللبنانيون بتمعن !!

لا تصبح الامة امة حقيقية ولا يستتب لها كيان الا متى نمت في صدور اغليبتها عاطفة حب الوطن ، وكان هذا الحب مؤسسا على معرفة تاريخها ، وما التاريخ الا قطعة من قلب الامة ، وما أبناء هذا الجيل الا أحفاد أجيال اذا تناسيناها مسخنا نفوسنا وانكرنا الاصول التي انما نحن لها فروع ولقد اثبت المدققون ان قوة الشعوب الحقيقية قائمة في ايمانها الوطني ، وعرف العالم باجمعه ان العثماني قد غلب في الحرب البلقانية لانه فاقد هذا الايمان ، وان الامم البلقانية لم تنتصر ذلك الانتصار الباهر الا لامتلاكها القوة الادبية علاوة على قواها الحرية

ومن الثابت ان السرب مثلا قد انتصروا لانهم بأجمعهم - من القائد الكبير الى الجندي الصغير - كانوا قد رسموا في قلوبهم وأدمغتهم تذكارات تاريخهم القديم الذي طمست به سنوات الحكم العثماني عليهم وفي سنة ١٩٠٧ تشكلت لجنة نياية سرية لفحص حالة استعداد الجيش العامة ، وارادت اللجنة ان تعلم مقدار معرفة الجنود تاريخ بلادهم فوقعت القرعة على فرقة من الفرق المقيمة في أقصى ارجاء سربيا فالتقت على كل من الجنود الاسئلة العشرة التالية :

ما ذا تعرف عن كرايفتش ما ركوا ؟ وعن ميلوش او بليتش ؟

عن الامير لازار ؟ وعن الامبراطور دوشان ؟

عن موقعة قوصوه ؟ وعن كاراجورجس ؟

عن الامير ميلوش وما هو اسم الملك الحالي ؟

واسم ولي العهد وهل يوجد سربون خارج سربيا ؟

فأبدت الاجوبة ان مائة في المائة من الجنود يعرفون ان « كرايفتش ماركو »

ملك سربيا وبطل التاريخ الوطني كان آخر حماة استقلال سربيا ضد الاتراك

ومائة في المائة يعرفون ان السربي « ميلوش او بليتش » قتل السلطان مراد

في موقعة قوصوه سنة ١٣٨٩

(المنار - ج ٨ م ١٧) تأسى اللبنانيين بالسريين في السعي للاستقلال ٦٢٥

ومائة في المائة يعرفون ان الأمير « لازار » قاد الجيش السري في معركة قوصوة وقتل فيها

وكانون في المائة يعرفون ان الامبراطور « دوشان » المتوفى سنة ١٣٥٥ كان اعظم ملوك سرىا القديمة

ومائة في المائة يعرفون ان الامبراطورية السرية قد سقطت في موقعة قوصوة واثان وستون في المائة يعرفون ان « كراجورجس » كان زعيم الثورة الاولى السرية ضد الاتراك سنة ١٨٠٤ - ١٨١٣

وتسعة وخمسون في المائة يعرفون ان الأمير « ميلوش » قاد الثورة الثانية التي ولدت منها سرىا الحالية سنة ١٨١٥

واثنان واربعون في المائة يعرفون اسم الملك الحالي

وثلاثة وعشرون في المائة يعرفون اسم ولي العهد

وثمانية وتسعون في المائة اجابوا انه يوجد سريون كثيرون خارج سرىا فهذه النتائج تثبت بوضوح ان الشعب السري باجمعه كان - ساعة شهر الحرب على تركيا - متشربا بذكارات تاريخه الوطني البعيدة والقريبة ومعتقدا بان امنية سرىا الحالية قائمة بتوسيع حدودها لامتلاك الاراضي المنصبة وجعل سرىا كافية لضم جميع السريين

في هذه الذكارات كانت قوة سرىا الحقيقية . وبهذه الذكارات انتقلت للتاريخ وانتصرت على تركيا

لم اروكل هذه المقدمات لاحد القراء عن سرىا والسريين . ولكنها أمثلة للام التي تريد ان تكون ونحيا !

نحن معاشر اللبنانيين لانحلم بمحاربة تركيا او الثورة عليها . ولكن الاوان قد آن لنسعى في تعزيز جامعتنا القومية وتأليف أمة يعرفها العالم المتمدن وبالامة اللبنانية ، . ومن اجل ذلك يجب ان نبدأ باعتناق الايمان الوطني وان تؤسس هذا الايمان على ذكارات تاريخنا البعيدة والقريبة
لقد انتهكت مذابح الستين قوانا الوطنية ولكن نصف جيل خلا كاف لتجديد الدم اللبناني

(المنار - ج ٨ م ١٧) (٧٩) (المجلد السابع عشر)

لوالفت اليوم لجنة لبنانية واختارت بضعة قرى من قرى لبنان واخذت تطرح على ابنائها الاسئلة التالية :

من هم اجداد اللبنانيين ؟ هل فقد لبنان يوما استقلاله ؟
من هو أعظم أمير لبناني ؟ من اخرج محمد علي من سوريا ؟
ماهي حدود لبنان الاصلية ؟ ماهي المسئلة اللبنانية ؟
ما رأيك بمذاهب الستين ؟ ما الفرق بين المسيحي والدرزي ؟
من هو احسن متصرف واسوا متصرف حكم لبنان ؟
بماذا يجب ان يحلم اللبناني اليوم ؟

لوالفت هذه اللجنة وسألت هذه الاسئلة واجاب مائة في المائة ان اجداد اللبنانيين هم الفينيقيون غزاة البحر وتجاره واساتذة اليونان وممدون قسم من افريقيا الشمالية وايطاليا وفرنسا واسبانيا

ومائة في المائة : ان لبنان لم يخضع يوما لدولة من الدول التي اجتاحت سوريا خضوعاً تاماً وانه لا يستطيع الحياة إلا مستقلاً

وثمانون في المائة بان أعظم أمير لبناني هو الامير نجر الدين المعني الثاني الذي أوصل حدود لبنان في الجيل السابع عشر من اطراف حلب الى أوئل فلسطين ولقبه سلطان تركيا « بسلطان البر » - يليه الامير الشهابي الكبير الذي نريد نقل رفاقه من الاستانة الى لبنان احياء للروح الوطنية

ومائة في المائة بان سيوف اللبنانيين كانت العامل الاول في اخراج محمد علي باشا المصري واعادة سوريا الى تركيا في اوائل الجيل الاخير

ومائة في المائة أيضاً بان حدود لبنان الاصلية التي اغتصبها الدولة تمتد من اعالي طرابلس الى صيدا ومن ساحل البحر المتوسط وفيه بيروت الى اطراف الشام وفيها سهل البقاع وجبل انطيلبنان المعروف بجبل حرمون او جبل الشيخ

ومائة في المائة بان المسئلة اللبنانية مشكلة بين الدولة ولبنان لا تحل الا باستعادة لبنان حدوده المغتصبة وحقوقه في الكمرك والبريد - وان هذه المسئلة يجب ان يطرحها المجلس الاداري امام محكمة أوروبا التي تحمينا ولنا بها علاقة منذ بضعة اجيال بتقديم دعوى الديون التي لنا في ذمة الدولة

وثمانون في المائة بان مذاهب الستين التي كان للمأموري الدولة اليد الاولى في انارتها وصمة على جبين لبنان يجب ان يحوها بنزع التعصب الديني وابداله بالتعصب الوطني

ومائة في المائة بان الدرزي أخ للمسيحي في الوطنية، للاول ماللثاني وعليه ما عليه وان احسن متصرف جاء قبل المتصرف الحالي هو داود باشا الارمني الذي سمي

في تحسين شؤون الجبل وتوسيع اراضيهِ ، واسوأ متصرف هم كل المتصرفين الذين سبقوا متصرفنا الحالي

وان على اللبناني ان يحلم اليوم باستعادة الامارة اللبنانية ، ويساعد جمعيات المجاهدين المخلصة ليعود المهاجرون الى بلادهم ، وتعود الى لبنان حياته ومعها العز والفخر . . . في ذلك اليوم . . . في ذلك اليوم يصبح اللبنانيون أمة حقيقة ويستطيع اللبناني ان يسمي جبله وطناً ، وان ينادي على رؤوس الملا بكل مباهاة وافتخار : « انا لبناني ! » « انا لبناني !!! »

(المنار) : لولا هذه النقط التي أبهم بها الكاتب النتيجة ، لقال القارئ ان النتيجة جاءت أصغر من المقدمات ، لامتبعة أخس المقدمات كما يقول علماء المنطق . والجمال واسع امام من يريد انتقاد ما كتب الكاتب ، واهم ما يهم دعاة النهضة العربية من ذلك جعل البلاد السورية أو طانا متعددة ، ومن فروع ذلك جعل هذا الكاتب اللبنانيين كلهم فينيقيين - على مذهب عبيد الله التركي الذي زعم ان نصارى سورية ليسوا عربا - وهذا خطأ مبين ، فان كثيرا من سكان الجبل يعرفون انهم من سلالة العرب ، ومنهم أمراؤه كبنى معن وبنى شهاب الذين يفخر الكتاب بكبيريهما الامير فخر الدين والامير بشير ، وبنى رسلان وغيرهم من الدروز . والباقيون من سلاسل العرب والفينيقيين وغيرهم . ولكنهم صاروا كلهم عربا بتوحيد لغتهم ، وانما الجنسية باللغة فكثير من الاسبانين من سلالة العرب ولكنهم لا يعدون الآن عربا

يظهر مما نشرنا وما لم ننشر مما يكتبه غلاة الدعوة اللبنانية انهم يمنون أنفسهم بما ليس في طاقتهم ، يمنون أنفسهم بأن يكونوا دولة قوية مستقلة تمام الاستقلال ، منفصلة عن جدتهم الامة العربية وأمهم سورية نفسها ، لاعن الدولة العثمانية فقط . ولا يكون مثل هذا الاشعب حربي قوي ، ولذلك يكثر أصحاب دعوة هذا الاستقلال من ذكر قوة الجبل وامتناعه عن الفاتحين ، وانتصاره على المصريين ، واخراجهم جيش محمد علي الكبير من سورية وردّها الى الدولة ! والاسترسال في المبالغات التي ليس من موضوعنا البحث فيها . ولنسلمهم حديثهم عن ماضيهم ، فانه لا يمنعنا من الجزم بأنهم لا يستطيعون ان يأخذوا بقوتهم شيئا من أرض الدولة ولا درهما من خزينتها ، وانما مسألتهم أوربية مفتاحها بيد الدول الكبرى ، فاذا هن اتفقت على إعطاء الجبل شيئا فهو الذي يرجى ان يأخذوه ، واذا لم يتفقن ففرنسة وحدها لا تستطيع ان تعمل للجبل شيئا . واذا استطاعت الدولة ان ترضي الدول بالقضاء امتياز لبنان فانها تلغيه ، وخلاف فرنسة وحدها لا يحول دون ذلك . فمن يعرف هذه الحقائق يجزم بأن مؤسسي جمعية (الاتحاد اللبناني) في مصر ارسخ قدما في السياسة من سائر اللبنانيين . وان وراء ذلك كله سياسة مثلي لو قدروها قدرها ، ولم نحجبهم آمالهم بفرنسة وغيرها عنها !!

مصائب مصر والشام برجال العلم وحملات الاقلام

٤ - الشيخ محمد جمال الدين القاسمي (تمة ترجمته)

تصانيفه ورسائله

كان أتابه الله سيال القلم سيال القريحة ، سريع الذاكرة سريع المراجعة ، وقد كتب كثيرا من الكتب والرسائل تصنيفا وشرحا واختصارا لبعض المطولات ، أحصاها لنا بعض تلاميذه فزادت على السبعين ، وهو العقد الذي تعبر به العرب من الكثرة . وهذه أسماؤها مرتبة على حروف المعجم :

- (١) الاستثناس ، في تصحيح أنكحة الناس . طبع في دمشق سنة ١٣٣٢
- (٢) الانوار القدسية ، على متن الشمسية في المنطق ، كتب عليها الى آخر قسم التصورات (٣) ايضاح الفطرة ، في أهل الفترة (٤) الارتفاق ، بمسائل الطلاق (٥) ازالة الاوهام ، بما يستشكل من ترك سيدنا عمر لكتابة الكتاب الذي هم به عليه الصلاة والسلام (٦) افادة من محام ، في تفسير سورة والضحي (٧) اعلام الجاحد ، عن قتل الجماعة المتباعدة بالواحد (٨) الاقوال المروية ، في من حلف بالطلاق الثلاث في قضية (٩) الاوراد الماثورة - مطبوع في دمشق (١٠) الاجوبة المرضية - مطبوع في دمشق سنة ١٣٢٦ (١١) اصلاح المساجد ، من البدع والعوائد (١٢) بذل المهمم ، لموعظة أهل وادي المعجم (١٣) بديع المكنون ، في أهم مسائل الفنون (١٤) بيت القصيد ، في ديوان الامام الوالد السعيد (١٥) بحث في جمع القراءات المتعارف

- (١٦) تعطير المشام ، في ما أثر دمشق الشام (١٧) تعليقات على حصول المأمول لصديق حسن خان (١٨) تنوير اللب ، في معرفة القلب (١٩) تاريخ الجهمية والمعزلة . نشر في مجلة المنار وطبع في مطبعتها سنة ١٣٣١ (٢٠) تنبيه الطالب ، الى معرفة الفرض والواجب - طبع في مصر سنة ١٣٢٦

- (٢١) ثمرة التسارع ، الى الحب في الله وعدم التقاطع
- (٢٢) الجواب السني ، عن سؤال السيد أحمد الحسني (٢٣) الجوهر الصاف ، في قابة الاشراف (٢٤) جواب المسألة الحورانية (٢٥) جوامع الآداب ، في أخلاق الانجباب (٢٦) جدول في مخارج الحروف وصفاتها (٢٧) جواب الشيخ السناني في مسألة العقل والنقل - نشر في مجلة المنار
- (٢٨) حسن السبك ، في الرحلة لوعظ قضاء البنك (٢٩) حياة البخاري .

طبع في صيدا سنة ١٣٣٠ (٣٠) حاشية على الروضة الندية
(٣١) درة الموهوم ، من دعوى جواز المرور بين يدي المأموم (٣٢) دلائل
التوحيد . مطبوع في دمشق سنة ١٣٢٦ « ٣٣ » ديوان خطب مطبوع في دمشق
سنة ١٣٢٥ .

« ٣٤ » رفع المناقضات ، بين ما يزيد في العمر وبين المقدرات « ٣٥ » رسالة
في الشاي والقهوة والدخان . مطبوعة في بيروت سنة ١٣٢٣ « ٣٦ » رسالة في أوامر
من مشايخ الاسلام بالحكم بغير المذهب الحنفي . مطبوعة بعد نشرها في مجلة المنار
سنة ١٣٣١ « ٣٧ » رسالة في المسح على الجوربين مطبوعة في بيروت سنة ١٣٣٢
« ٣٨ » رسالة في المسح على الرجلين .

« ٣٩ » زوال الغشاء ، عن وقت العشاء « ٤٠ » زبدة الاخيار ، عن أولاد
الكفار « ٤١ » السطوات ، في الرد على منع العشاء قبل الصلوات

« ٤٢ » شمس الجلال ، على منتخب كنز العمال « ٤٣ » الشذرة البهية في حل
ألفاظ نحوية . مطبوعة في دمشق سنة ١٣٢٢ « ٤٤ » شذرة من السيرة الحمديدية .
مطبوعة بمطبعة المنار في مصر سنة ١٣٣١ « ٤٥ » شرح لفظة المعجلان . مطبوعة في مصر
سنة ١٣٢٦ « ٤٦ » شرح مجموعة أربع رسائل في الاصول . مطبوعة في بيروت سنة
١٣٢٤ « ٤٧ » شرح مجموعة أربع رسائل في الاصول أيضا . مطبوعة في دمشق
سنة ١٣٢٣ « ٤٨ » شرح مجموعة ثلاث رسائل في أصول التفسير وأصول الفقه .
مطبوعة في دمشق سنة ١٣٢١ « ٤٩ » شرح مختصر المستصفي لابن رشيقي .

« ٥٠ » الطائر الميمون ، في حل لغز الكنز المدفون . مطبوع مرتين سنة
١٣١٦ وسنة ٢٢ « ٥١ » طراز الخلعة ، فيما نقل من قول الرمي : وأقسام الاسم تسعة
« ٥٢ » الطالع المسعود ، على تفسير أبي السعود (لم يتم) « ٥٣ » الطالع السعيد ، في
مهمات الاسانيد

« ٥٤ » العقود التنظيمية في ذكرى مولد النبي (ص) وأخلاقه العظيمة ، ومحاسن
شريعته القوية « ٥٥ » غنيمة الهمة ، على كشف الغمة « ٥٦ » فصل الكلام ،
في حقيقة عود الروح الى الميت حين الكلام « ٥٧ » الفضل المبين ، على عقد
الجواهر الثمين ، ويعرف بشرح الاربعين العجلونية « ٥٨ » فتاوى الاشراف ،
في العمل بالتلغراف . مطبوع في دمشق سنة ١٣٢٩ « ٥٩ » قواعد التحديث ،
من فن مصطلح الحديث

٦٠ الكواكب السيارة ، في مدح الفؤارة ٦١ كتاب الفتوى في الاسلام .
مطبوع في دمشق سنة ١٣٢٩ . (٦٢) كتاب ارشاد الخلق ، الى العمل بخير البرق.

٦٣٠ هل كتب القاسمي اصلاحية (المنار - ج ٨ م ١٧)

طبع بدمشق سنة ١٣٢٩ ، ٦٣ كتاب الاسراء والمعراج . طبع بدمشق سنة ١٣٣١
 ٦٤ كتاب شرف الاسباط . طبع بدمشق ٦٥ كتاب (شرح المقائد) وهو كتاب
 كبير كتب الفقيه منه نحواً من مائتي صفحة ولم يتم ٦٦ الف والنشر ، في طبقات
 المدرسين تحت قبة النسر ٦٧ لزوم المراتب ، في الادب مع الامام الراتب
 ٦٨ المسند الاحمد ، على مسند الامام احمد ٦٩ منتخب التوسلات . مطبوع
 في دمشق سنة ١٣٠١ ، ٧٠ ، مذاهب الاعراب وفلاسفة الاسلام في الجن . طبع
 بدمشق سنة ٣٢٨ ٧١ ، ميزان الجرح والتعديل طبع في مصر سنة ١٣٣٠
 ٧٢ موعظة المؤمنين ، من احياء علوم الدين . طبع بمصر سنة ١٣٣١ ، ٧٣ محاسن
 التأويل (وهو التفسير العظيم الذي يقع في اثني عشر مجلداً مع مقدمته التي كتبت
 في مجلد حافل

٧٤ النجعة الرحمانية ، على متن الميدانية . مطبوعة في دمشق سنة ١٣٢٤
 ٧٥ قد النصائح الكافية . طبع بدمشق سنة ١٣٢٨

٧٦ هداية الالباب ، لتفسير آية « وطعام الذين أوتوا الكتاب » ٧٧ الوعظ
 المطلوب من « قوت القلوب » ٨٧ وفاء الحبيب وحده ، في ايضاح جهة الوحدة
 (السوق في الفناري) ٧٩ يتابع العرفان ، في مسائل الارواح بعد مفارقة الابدان
 اقول: ان بعض ما ذكرنا رسائل صغيرة مؤلفة من كراسة او كراستين او
 كراسات قليلة ، له او لغيره ، وبعض ما ذكرنا من الشروح عبارة عن تعليقات
 لا يصح ان تسمى شرحاً ، وقد كتب الي في العام الماضي ان له كتاباً في العبادات
 مقتبساً من كتب المذاهب مع بيان حكمة التشريع . كان اخذه منه الشيخ احمد طباره
 ليطلعه في مطبعته بيروت ولم يعده اليه ، وعلمت مما كتب الي انه من اهم كتبه ،
 وكنت وعدت بتأليف كتاب في ذلك فسبقتني رحمة الله اليه ، فتمنيت لو يطبع لأستغني
 به . ولعل هذا الكتاب وتفسيره الحافل هما اكبر مظاهر علمه واصلاحه ، على ان
 له رسائل مختصرات ، لاتفي عنها المطولات

سيقول كثير من الناس: إنك عدت القاسمي من رجال الاصلاح ، وان أسماؤه
 كثير من هذه الكتب التي صنفها أو شرحها تدل على انها ليست من الاصلاح
 في ورد ولا صدر ، ولا تشتمل على عين منه ولا أثر ، فكيف يضع العالم المصلح
 وقته في شرح لغز ، أو ما يعد أبعد عن الاصلاح من اللغز ؟

ويمكنني أن أقول : ان الرجل كان من خيار مصلحي المسلمين في هذا العصر وان لم يدخل كل ما كتبه في باب الاصلاح الذي يفهمه قراء المنار ، فمسي الاصلاح ومفهومه واسع ، وهو يختلف باختلاف الزمان والمكان ، والسن والعشراء والاقراء ، والتلاميذ والمريدين ، وغيرهم من المخاطبين ؛ والمصلح لا يخلق مصلحا بالفعل ، بل يخلق كفيده لا يعلم شيئا ؛ ويكون الاستعداد للاصلاح فيه كامنا ، ثم تظهره التربية والتعليم ، وما يتجدد المرة بعد المرة له من العبرة والتأثير . فهل يطلب من عاش خمسين ، ترك فيها من هذه الكتب والرسائل نحو من سبعين ، ان يكون جميع ما كتبه او شرحه اصلاحاً في الدنيا والدين ، مرضيا عند الكهول المجريين ، والشيوخ المحنكين ؟

طريقته في الاصلاح

حسب من نشأ وتعلم وتربى في أرض التعصب للتقليد ، والجمود على العادات والخرافات ، تحت سماء الاستبداد ، والحجر على الالسنه والاقلام ، — ولم تكن هذه المفاصد في الاستانة أشد منها في الشام — ان يكون بسلامة فطرته ، وعناية الله به ، مثل الشيخ جمال الدين القاسي في استقلاله ، ونزاهته واعتداله ، ونظافة عقله وقلمه ولسانه ، وجراته على مجاهدة الجمود والتقليد ، والجمع في احياء علوم اللغة والدين بين الطريف والتليد .

أما طريقته في الاصلاح وغايته منه فلم يكن فيها على خطة مقررة من اول النشأة ، وانما كونتهما الحاجة بقدر استعداد البيئة : فتح الرجل عينيه فرأى أطلال العلم في بلده دارسة ، وأعلامه طامسة ، وقد كانت مهاجرا يرحل الطلاب اليها ، فأصبحت مهجورة يرحل عنها . فكان الاصلاح الضروري فيها ايجاد نشء جديد من طلبة العلم يعلمون تعليما صالحا يرجي أن يحيا به وبهم العلم ، وقد كان سبب اختيار الشيخ لقراءة بعض الكتب ولكتابة بعض الشروح والتعليق على بعضها ، هو الضرورة أو الحاجة الى تدريسها ، لا كونها صالحة في نفسها ، او محاولته اصلاح التعليم بها . مثال ذلك ما كتبه على شرح الفناري ومثنى الشمسية في المنطق ، كان مما لا بد منه ، لان طلبة العلم كانوا يمتحنون بهما لاجل اعفائهم من الخدمة العسكرية . وقيس مالم نعرف عنده فيه — كقراءة كتاب جمع الجوامع وشرح بعض المتنون — على ما عرفنا عنده فيه

كتمن الشمسية وشرح الفناري، وكلاهما لا يصلحان للتدريس، في رأي العارفين بطرق إصلاح التعليم. ولو كان الشيخ في مصر لقلنا ان عذره في قراءة جمع الجوامع اعتماد الجامع الازهر عليه في الامتحان ونيل شهادة العالمية

لعلنا لو اطلعنا على جميع ما كتبه لظهر لنا من عذره ما لا يظهر لنا الآن . أو نتقد منها ما لا نطن الآن انه متقد ، وحسب الرجل ان يكون مصلحا في سيرته ومجموع أعماله

قد اطلعنا على كتاب دلائل التوحيد وبعض الرسائل من مؤلفاته المطبوعة ، وقرطنا بعضها في المنار وينا مزيته فيها . ويمكننا أن نستنبط منها ومن مذاكراتنا القصيرة له ما نعهده للقارئ من مزاياه ومزاياها

(١) ان القاسمي درس فنون اللغة العربية والعلوم الشرعية على الطريقة المألوفة في مدارس المسلمين منذ قرون ، وتلقى تلك الكتب التي اختارها المتأخرون للتدريس ، ورأى حاجة أهل البلاد الى بعض تلك الكتب لاجل امتحان الاعفاء من العسكرية ، وان المشتغلين بالعلم منهم يظنون أن العالم لا يكون عالما حقيقة الا بتحصيل كذا وكذا منها (كجمع الجوامع وكتب السعد التفتازاني) فكانت هذه الامور الثلاثة أسبابا لمحافظة على بعض ذلك التليد

(٢) انه كان يرى ان ما يثبت بالدليل الثقل في النقليات والعقلي في العقليات وبالتجربة في المخرجات لا تتلقاه بالقبول هذه الامة التي جمدت على التقليد، وبعد عهد جمهورها بالحجة والدليل ، الا اذا أيد بنقل عن بعض العلماء السابقين ، ولا سيما اذا كان من المشهورين ، فكان يرى هذا ركنا من أركان الإصلاح في التدريس والتأليف لاجل اقناع المستدلين والمقلدين معا، ونحن نجري على هذا في المنار والتفسير احيانا

(٣) انه كان يتحرى مذهب السلف في الدين وينصره في دروسه ومصنفاته وما مذهب السلف الا العمل بالكتاب والسنة ، بلا زيادة ولا نقصان ، على الوجه الذي كانوا يفهمونه في الصدر الاول . وقد اتهم — كما اتهم غيره من المستقلين — بأنه احدث مذهباً جديداً في الاسلام ، ولما كانت حادثة السعاية التي أشرنا اليها ، وذكرنا انه حبس فيها ، لفظ حساده بهذه المسألة فقال يرد عليهم :

زعم الناس بأني مذهبي يدعى الجمالي
واليه حينما أف تي الوري أعزو مقالي
لا وعمر الحق اني سلفي الانحال
مذهبي ما في كتنا ب الله ربي المتعالي
ثم ما صح من الاخذ بار لا قيل وقال
أقضي الحق ولا أر ضي بآراء الرجال
وأرى التقليد جهلا وعمى في كل حال

وقال ايضا في هذا المعنى :

أقول كما قال الأئمة قبلنا صحيح حديث المصطفى هو مذهبي
ألبس ثوب القيل وقال باليا ولا أتحملي بارداء المذهب

(٤) كان يتحرى في المسائل الخلافية الاعتدال والانصاف ، واتباع ما يقوم عليه الدليل من غير تشنيع على المخالف ولا تحامل . وكان الحرص على الوفاق وجمع كلمة المسلمين يجتهد في اسنابة حجة كل فريق من اصحاب المذاهب ، وتقريب احدهما من الآخر ، باظهار حجته أو شبهته ، وحكاية ما يعارض الخصم به . ومن كانت هذه طريقته فكثيرا ما يفضب الخصمين معاً . فيتهمه كل منهما بالتشيع للآخر . ثم اذا كان احدهما مصيئاً والآخر مخطئاً يتعذر على محب الاعتدال في الحكم بينهما ان يرضى باستحداث مذهب ثالث يجعله وسطا بينهما ، اذ ليس بين الحق والباطل وسط ، وانما يكون الحق وسطا بين باطلين ، او أباطيل ترجع كثرتها الى نوعين — الزيادة على الحق او النقص منه . وقد اتهم الفقيه بعض السلفين بأنه خالف مذهب السلف في رسالته (تاريخ الجهمية والمعتزلة) التي نشرناها في المنار ، على شدة حرصه عليه وتحميه اياه ، وانتقدها بعض الشيعة كما يأتي . واتهمه بعض المستقلين بعمرة اخرى في رسالته (نقد النصائح الكافية) وهي ان حب الاعتدال وتقريب احد الخصمين من الآخر اخرجه عن الاعتدال في بعض المسائل ، ولكن بقصد الاصلاح وهنا مسألتان (أحدهما) أن المستقل في علمه وحكمه حق الاستقلال يتحرى

٦٣٤ تأليف القاسمي بين المسلمين وأخلاقه وشمائله (المنار - ج ٨ م ١٧)

ما يظهر له أنه الحق فيقول ويحكم به وإن أغضب جميع الناس عليه . وقصارى ما يستتيحه من ارضاء الناس أو استماتهم التلطف في القول ، وتزيين الحق الذي ثبت

عنده بجلي البيان وحله ، دون ابرازه لم عاري الجسد عاطل الجيد

(الثانية) ان الاصلاح بين الرجلين أو القبيلين من الناس فضيلة حث عليها الشرع وعرف حسننا العقل ، وقد أبيض فيها الكذب عند الضرورة عملاً بقاعدة « ارتكاب أخف الضررين » فبالاولى يباح فيها التماس المذر لكل خصم فيما خالف فيه الآخر ، وتوجيه ما قام عنده من الحجة أو شبه الحجة . وهذه الطريقة في الاصلاح أقرب الطرق لارضاء المعتدلين من أهل المذاهب المختلفة، وأما الغلاة في التعصب لمذاهبهم فلا يرضيهم الا موافقتهم واتباعهم .

أما العمل بهاتين المسألتين واعطاء كل واحدة منهما حقها فهو عسر جداً، فإن المستقل جد الاستقلال اذا تصدى للتوفيق بين الحصين المتعصبين يفضيها جميعاً وانما يمكن أن يرضي المستقل من كل فريق أو المستعد للاستقلال، اذا أوتي الحكمة وفصل الخطاب ومن الآيات على ذلك أن رسالة (تاريخ الجهمية والمعتزلة) لم يكتب أحد في هذا العصر كتابة أعدل منها في التأليف بين فرق المسلمين الكبرى — وهم أهل السنة الأثرية والاشاعرة والمعتزلة والشيعة والخوارج — وقد كتب بعض علماء الشيعة رداً عليها قبل اتمام نشرها ، وهل يرضى شيخي بتعديل بعض الخوارج والرواية في الصحيحين عنهما ؟ وانكر بعض أهل السنة الأريين بعض المسائل فيها كما تقدم . فأين هذه من تلك الرسالة التي كتبها احد علماء الشيعة للتوفيق بين الامة بزعمه او دعواه الظاهرة فكانت عبارة عن دعوة أهل السنة الى التشيع بتخطئهم وتصويب الشيعة في جميع مسائل الخلاف !!

أخلاقه وشمائله

كان من اكمل ما رأيت في أخلاقه وآدابه وشمائله: كان أبيض اللون نحيف الجسم ربة القد ، أقرب الى القصر منه الى الطول ، غضض الطرف ، كثير الاطراق ، خافض الصوت ، ثقيل السمع ، خفيف الروح ، دائم التبسم وكان ثياباً ناسكاً واسع الحلم ، سليم القلب ، نزيه النفس واللسان والقلم ، برا بالأهل ، وفياً للاخوان ، يأخذ ما صفاً ويدع ما كدر ، عاثلاً غنياً قانماً

(النار - ج ٨ م ١٧) تأليف القاضي بين المسلمين وأخلاقه وشماله ٦٣٥

لا يطيبه طمع مدنس إذا استمال طمع أو اطمح
وقد بنا ما كان لأخلاقه الكريمة من حسن الأثر، والوقاية من كيد الجامدين
والحاسدين، والإعانة على الإصلاح

ومن حسن وقائه أنه لم يقطع مراسلتنا ولا مراسلة الاستاذ الامام في ابان نقل
وطأة الاستبداد الحميدي، اذ كانت مراسلتنا تعد من الجنائيات السياسية التي تعاقب
الحكومة صاحبها أشد العقاب، ولكنه ترك التصريح بنقل شيء عنا كما يعلم من
كتابه (دلائل التوحيد) وصرح لنا بذلك

وقد عبرنا عن بعض ما وجدناه من الحزن لفقده بكتاب وجهناه الى أهله، وكان
من يعرف ما بيننا من الاخاء يعزينا عنه كما يعزى الاخوة في النسب. وما بيننا من
أخوة النسب الروحي، أعلى من النسب الجسدي، على أن نسب امه يتصل بنسبنا أيضا
وحسبي أن أدون من تلك التعازي ما كتبه الى صديقي وصديقه علامة العراق
ورحلة أهل الافاق، السيد محمود شكرى الالوسي الشهير. وقد كتبت اليه مثل الذي
كتبته الى يباعث القلب، ولكنه سبق كدأبه في سبق الى كل فضل. وهذا
ما كتبه بعد الالتاب، وفاتحة الخطاب:

« أما بعد فقد نعت الينا صحف البلاد الشامية وفاة العلامة السيد جمال الدين
القاسمي قدس الله روحه الزكية، فأمض ذلك الخبر قلبي وأفض لي، وجرح فؤادي
وطرد رقادي. وأحدث لي حزناً ملازماً، وألماً دائماً، وأورثني قلقاً واخزا.
وانزعاجاً حافزاً. وحيث كان المشار اليه من أعزة أحبابكم، وخلص أصفياؤكم،
مع ما كان عليه من الفضل الوافر، والادب الباهر، والورع الظاهر، والنسب
الظاهر، والذب عن الشرع المبين، وقوه الايمان واليقين، ومناضلة الحائدين
والملاحدين، وانه حسبما اعترف له الموافق والمخالف

أحياه الله الشريعة والهدى وأقام فيه شعائر الاسلام
حكم على أهل العقول يثبها منعوتة الاوضاع والاحكام
ويريك في ألفاظه وكلامه سحر العقول وحيرة الافهام

فاني اعزى عليك على فقده، وتوسده للحدود، ومفارقته لهذه الدنيا القدارة الخائنة
المكارة، فان نعيمها زائل، وكوكب سعدا آفل، فلا اوجع الله لك قلباً، ولا كدر
لك خاطراً ولا لباً، وللإسلام من طلعتكم الغراء، سلوان عمن مضى من الفضلاء،
وانما يجبل الرزء اذا قل العوض، ويكبر المصائب اذا عدم الخلف. فاما اذا كنت
الباقى، وغيرك الماضي، وصرت الموحود، وسوالك المفقود، فالقادة خفيفة الوقع، مروية
المصدع ويد الدهر فيما نال قصيرة، ومنته فيما ترك كبيرة. هذا مع أسفى عليه كل الأسف،
وتصاعد أنفاسي بزيد اللهب، وقد جرت عليه من العيون عيون، فانا لله وإنا اليه

راجعون . نسأله تعالى ان يديمكم ركناً للإسلام ، ومرجعاً للأخص والعام ، ويصونكم من طوارق الليالي والايام ، تذكرة للسلف الاعلام » اه
وأقول ان مما يعزني ويعزي هذا الاخ الكريم . والمصلح العظيم ، الذي لا استحق بمض ثنائه ، ولا ينسبني تقصي كمال إطرائه ان أخانا الفقيه قدربني وعلم افرادا من اخوته وغيرهم يرجي ان يقفوا اثره ، ويتلو تلو ، وان كان نسيج وحده فتبقى بهم ديار الشام . أهلة ان شاء الله بالعلماء الاعلام . على مدى السنين والايام .

(٥ - جرجي بك زيدان)

قضى الله - ولا راد لقضائه - ان لا شرخ من رثاء وترجمة رجال العلم الذين فجعت بهم الأمة العربية في هذه السنة في مصر والشام ، الا وقد رزى القطران بفجعة أخرى ، فقد فاجأت المنية في التاسعة والعشرين من هذا الشهر جرجي بك زيدان صاحب مجلة الهلال ، وأحد أركان النهضة العربية الحديثة ، فاجأته كهلا قد بلغ أشده واستوى ، حسن الصحة تام القوى - وقد أتم في هذه الليلة تصحيح آخر كراسة من آخر جزء من أجزاء السنة الثانية والعشرين للهلال ، وآخر كراسة من كتاب تاريخ العرب . وتنفس الصعداء من تعب ليلة شعر بأنه ألقى عن عاتقه في أولها تعب عشرة أشهر ، ثم ألقى نفسه على سريره ليبدأ فيها باستراحة شهرين كاملين ، ففاضت نفسه فاذا هو قد ألقى عنها تعب ربع قرن في الجهاد العقلي كان هو القاضي على مادة ذلك الدماغ الذي يشبه معملاً من معامل الكهرباء ، في السرعة والنور والحرارة والضياء ، والمقوض لدعائم تلك الحياة الجميدة ، حياة الجد والعمل والفقة والاستقامة . فاذا كان الجهاد العقلي قد صرع احمد فتحي باشا زغلول والاستاذ القاسمي بعد مرض طويل أو قصير ، فقد صرع جرجي بك زيدان من غير مرض ولا شكوى فقدت الأمة العربية بهذا الرجل ركناً من أركان نهضتها الحديثة في العلم والأدب ، بعد أن نضج علمه ، واتسعت معارفه ، وكملت تجاربه ، وصار اقدر على اتقان خدمتها ، ومساعدة نهضتها .

نشأ الرجل عصامياً ، فقد ولد في أواخر سنة ١٨٦١ م من أبوين فقيرين اميين ، ولكن يظهر انه كان له في الأرومة العربية عرق راسخ ، فقد بحث عن أصل بيتهم - وكان يسمى بيت مطر - فانهى به البحث الى ترجيح كونه من عرب حوران ، وكان يظن انه كثر الروم الارثوذكس في سورية من بني غسان .

تلقى مبادي القراءة والكتابة في بعض مكاتب بيروت الابتدائية . وكان يشتمل مع والده في مهنته لاجل المعاش ، ولكن استعداده للعلم وعشقه للمدارس كانت قويا جدا ، فكان يختلف الى بعض المدارس الليلية ، يتعلم فيها اللغة الانكليزية . وبحث عن رجال العلم والأدب ويتقرب اليهم ، وانتظم مع طائفة من خيارهم في سلك جمعية شمس البر الادبية ، فازداد حبا للعلم ورغبة في طلبه ،

وكان بعض من آتس فيه الاستعداد من أهل العلم يقرأ له دروسا خاصة يستعد بها لدخول القسم الطبي من المدرسة الكلية الأمريكية الشهيرة ببيروت ، وبعد تحصيل قليل أدى الامتحان ودخل المدرسة فكان يتعلم فنون الصيدلة ويؤدي بعض الخدمة لأجل المعاش ، ولكنه ترك المدرسة في أثناء السنة الثانية لما كان عرض فيها من الاختلال الداخلي المعروف . وقصد بعد ذلك الديار المصرية ليم دروسه في مدرسة القصر العيني فلم يتج له ذلك ، بل دخل في طور العمل والكسب

ان كثيرا من النابضين لم يقيموا في المدارس زمنا طويلا ، ومن الثابت بالاختبار ان طول الإقامة في المدارس تضعف ملكة الاستقلال ، فيخرج الطالب بعده مقادا جامدا على ما أطال درسه ومزاويلته . فان كانت سعة العلم لا تحصل الا في الوقت الواسع ، فالواجب ان يكون أطول زمن التحصيل خارج المدرسة لا داخلها ، وفي أثناء العمل بالعلم ، لا في أثناء تلقي نظرياته ومصطلحاته . ورب ذكي أو مجتهد يحصل من مسائل العلم في سنة ما لا يحصله غيره في سنين كثيرة . وما تحصيل المدرسة الا دلالة على طريق العمل بالعلم ، فن يطلب العلم فيها لأجل الاستعانة به على العمل بعد الخروج منها ، فرما يكفيه القليل من العلم ، فيجعله أهلا للعمل الذي لا يكمل العلم الا به . واما من يطلب العلم لأجل نيل شهادة مدرسية يتوسل بها الى رزق لا يتوقف على دوام الاشتغال به والارتقاء فيه ، فهجرته الى ما هاجر اليه ، فهو يحصل ورقة الشهادة ، ولكنه قلما يكون عالما عاملا بعلمه مرتقيا فيه . وناهيك اذا كان طلبه للعلم بارادة ولي أمره ، لا بارادته الذاتية ورغبته .

أما قعيدنا اليوم فقد كانت نفسه العصامية هي الحافزة لهمة والباعثة له على طلب العلم ، وكان يقصد من العلم ان يعمل به فيفيد مالا وجاها يكون به في مقدمة امته لاني ساقها . ولذلك حصل بحجده وقوة ارادته في الزمن القليل ، ما يمكنه من العمل الذي عجز عن مثله من هم أكثر منه تحصيليا ، وأوسع في العلوم والفنون عرفانا . وأما اذا اتفق لثل صاحب هذه الهمة والارادة تحصيل المقدمات تامة من أول النشأة ، فان عمله يكون أقوم ، وسيره فيه يكون اسرع وأتم .

اشتغل القعيد عقب هجرته الى مصر بالتحرير في جريدة يومية اسمها الزمان نحو من سنة ، ثم سافر مع الحملة النيلية الانكليزية الى السودان مترجما في قلم الخبارات ، وشهد بعض وقائع الحرب في السودان ، ومكث هناك عشرة أشهر ، ثم عاد وسافر الى سورية فاشتغل فيها مدة بدراسة اللغتين العبرانية والسريانية . ثم الى بلاد الانكلز . ثم عاد الى مصر فندبه أصحاب القنصل الى مساعدتهم في ادارته فتولاها سنة واشهرا ، ثم استقال منها وانصرف بكل همته الى التأليف فألف تاريخ الماسونية ومختصر التاريخ العام وتاريخ مصر الحديث . ثم تولى ادارة

التعليم بالمدرسة العبيدية سنتين

وفي أواخر سنة ١٨٩٢ ميلادية أنشأ مجلة الهلال ، وجعل جل عنايته فيها بالتاريخ والأخبار العلمية ، وجعل لها ذيلا من القصص (الروايات) الغرامية المزوجة بتاريخ الإسلام ، فظهر من خطته فيما ينشئ وينقل أنه من أقدر من اشتغل بالصحف العربية والتأليف في هذا العصر ، أو أقدرهم على جذب جمهور القراء الى ما يكتب ، بمحاولة جعل ما يكتبه لذيذا سهل الفهم ، كالطعام اللذيذ سهل الهضم ، وكان يختار في كل وقت ما يناسبه ، وفي كل حال ما يلائمه ، فإذا أملت ملمة ، أو حدثت حادثة مهمة - كالحروب ومشاكل الدول وموت الملوك والكبراء - بادر الى كتابة ما يتعلق بذلك من مباحث التاريخ القديم والحديث ، مزينا له بما يتعلق به من الصور والرسوم .

وكان سلما نزيه القلم ، يتقي كل ما يشير غضب أصحاب المذاهب الدينية ، والأحزاب السياسية ، ولكنه لم يسلم مع ذلك من اتهام بعض سيئي الظن من المسلمين والنصارى ، فقد اتهمه بعض الاولين بعمد الظن في الإسلام بقرينة يفترها ، أو دسيسة يدسها ، وكانوا يستدلون على ذلك ببعض الاغلاط التي وقع فيها ، أو تصوير بعض المسائل بغير الصورة التي يعرفونها ، لفهمها بغير الصفة التي يفهمونها ، ورد عليه بعض هؤلاء في المؤيد . وطالما رددت على بعضهم مبررا له من سوء التقصد ، لما لي فيه من حسن الظن . وأشارت الى ذلك في المنار غير مرة .

وقد حدثني ان بعض سيئي الظن من النصارى قد اتهمه بضد ما يتهمه به بعض المسلمين : انهموه بمصانعة المسلمين ومحاباتهم ، ومدح الإسلام والمسلمين تقربا اليهم ، لاجل الكسب منهم . ولا يسلم من ألسنة الناس أحد ، كيف وقد كفروا بالواحد الآخر ، الفرد العبد ، سبحانه وتعالى

نعم انه قد ظهر منه بعد الانقلاب العثماني نزعة جديدة ، تقدمتها نزعة عدت احياء لمذهب الشيعوية : ذلك بأنه زار الآستانة ولقي فيها بعض زعماء جمعية الاتحاد والترقي ، ثم عاد متشجعا بالنهضة التركية ، مستنكرا مجازاة العرب لآخوانهم الترك بالقيام بنهضة عربية ، مستصوبا خطة الاتحاديين الاولى من تركك العناصر وادغام العرب في الترك . وقد كتب في الهلال ما يشعر بهذه النزعة ، فهاج ما كتبه جماعات فتيان العرب في الآستانة وسورية ، وكادوا يحملون عليه في الصحف ردا واحتجاجا ، ولكن حالت دون ذلك معارضة مسموعة مقبولة

وأما النزعة التي سبقت هذه النزعة ، فهي مطاعن للتقيد في العرب أودعها في تاريخ التمدن الاسلامي فطن لها أخيرا من لم يكن يحفل بها . وزادهم التفانا اليها ترجمة جريدة (إقدام) التركية لتاريخ التمدن الاسلامي ونشره فيها بالتابع . فتشاور كثير من

الشبان المتعلمين في الرد على هذا التاريخ ولم يظهر منهم شيء . ثم اتفق أن انبرى للرد عليه في هذه المسألة الأستاذ الشهير الشيخ شبلي النعماني من أشهر علماء الهند وأوسمهم اطلاعا في التاريخ . وكتب إلينا هذا الأستاذ الكبير وهو صديقنا وصديق فقيدنا المردود عليه نجبرنا بما شرع فيه من الرد ، ويقترح علينا أن ننشر رده في المنار ، ولما كنا نعهد من الفقيد تلقى الانتقاد عليه بسعة الصدر ، بل عهدنا منه مطالبة الكتاب بهذا الانتقاد - ونعلم ان الأستاذ الشيخ شبلي النعماني صديقه - ورى ان تمحيص هذه المسألة اصبح ضروريا - بادرننا الى نشر الرد من غير أن نقرأه ، بل نشر في أثناء رحلتنا الهندية ، ثم قرأناه بعد عودتنا من الهند وعمان والعراق وسورية فأيناه فوق ما كنا نظن من شدة الرد ، ورعى الفقيد بسوء القصد . وكنا علمنا من المتقدم عند لقائه في الهند أنه كان يرى بعض الغلط في تاريخ التمدن الاسلامي وغيره من مؤلفات صاحبه فيحمله على الخطأ أو سوء الفهم ، ولكنه لما قرأ مجموع طعنه في العرب جزم بأنه صادر عن سوء قصد . فهذا سبب شدة حملته عليه ، على ما كان من مواده له . وقد كتبنا مقدمة لانتقاد الشيخ شبلي اذ طبع على حدته بينا فيها ذلك ، واننا لو اطلعنا على ما فيه من الشدة قبل نشره ، لراجعنا الكاتب فيه واستأذناه بحذف الطعن الشخصي منه ، وقد نشرنا تلك المقدمة في المنار تعزيزا لدفاعنا السابق بالقلم واللسان ، عن رجل عدونا صديقا لنا ، وعضوا نافعا في أمتنا ، على اننا لم نسلم مع ذلك من سوء ظنه فينا :

ثقلت وطأة رد الشيخ شبلي النعماني على الفقيد لشدة ، ولأنه كان يعده من أصدقائه ، واثني عليه غير مرة في هلاله ، فلم يصدق أولا انه هو المتقدم ، واتهمنا بذلك ، وكتب الى الشيخ شبلي كتابا ذكر فيه ذلك ، راجيا ان يكتب اليه متصلا منه ليبين ذلك في الهلال ، ويظهر ان النقد لصاحب المنار !! وقد اطلعني الأستاذ الشيخ شبلي على كتابه ذاك في (لسهنو) أيام كنت فيها ، ورأيت متعجبا منه ، فكان عجيبي أشد من عجبه . وقد ذكرت للفقيد ذلك معاتبا ، فكان حتى عليه في سوء ظنه بي ، أكبر من حقه علي في نشر النقد - وقد نشر في غيبي . وقد اتفق لي مثل هذا مع كاتب سوري آخر ، كانت حقوق الصحبة بيني وبينه أقوى منها بيني وبين جرجي بك زيدان ، وكنت أثني عليه للأستاذ الامام واستميله لمساعدته ، فكتب الى الأستاذ كتابا يطعن بي فيه ، ويتهمني بتفجير الأستاذ عنه ، والظعن فيه عنده ، فتعجب للأستاذ من أمري وأمره !! أما مؤلفاته فهي مطبوعة مشهورة وهاك أسماؤها :

١ التاريخ العام

٢ تاريخ مصر الحديث - جزآن

- ٣ » التمدن الاسلامي . خمسة أجزاء
- ٤ » الغرب قبل الاسلام . جزء واحد
- ٥ » الماسونية العام »
- ٦ » اليونان والرومان » صغير
- ٧ » انكلترا » لم نره
- ٨ » اللغة العربية »
- ٩ » آداب اللغة العربية - ٤ أجزاء
- ١٠ الفلسفة اللغوية . جزء صغير
- ١١ انساب العرب القدماء »
- ١٢ علم الفراسة الحديث »
- ١٣ طبقات الامم »
- ١٤ عجائب الخلق »

(١٥ - ٣٦ قصص (روايات) منها ١٨ قصة تتعلق بتاريخ الاسلام وثلاث

تتعلق بتاريخ مصر ، وواحدة غرامية محضه .

وأما أخلاقه وشمائله فقد كان أديب النفس ، نزيه اللسان والقلم ، بشوش الوجه معتصما بحبوة الجد ، متزها عن اللغو والمبث ، محبا للنظام ، حفيا بالأهل ، وصولا للرحم ، عبا للقریب

ورأى فيه أن عقله كان اكبر من علمه ، ومن فضل عقله على علمه حسن اختيار ما كان يكتب ، وحسن ترتيبه وتبويبه ، فقد كان في هذا وهو من مخرات العقل أبرع منه في تحرير المباحث وتنقيحها ، وتمحيص الحقائق بالقول الفصل فيها . وسبب ما انتقد وما ينتقد من الغلط على كتبه بحق ، هو أنه كان يقدم على الكتابة في مباحث لم تسبق له دراستها ، معتمدا على مراجعتها من مظانها عند الحاجة اليها ، ومن كان يكتب المقالة في يوم أو ايام أو ساعة أو ساعات ، لاجل أن تنشر في مجلة شهرية ، ويؤلف الكتاب في عدة أشهر لانه وعد بنشره في وقت معين من السنة ، قلما يستطيع أن يجمع بين المواد وتنسيقها وترتيبها ، وبين تمحيص الحقائق فيها وتحريرها . ولعمر الانصاف انه ليقول من يستطيع كتابة تلك الكتب في مثل الزمن الذي كتبها فيها مصنفها ، وهل يوجد في أمثال كثير من أمثال من فقدته اليوم ؟ وقد ترك للأمة ما يميزها عنه - تلك المصنفات الجامعة بين الفائدة واللذة ، ونجله النجيب أميل زيدان الذي أحسن تعليمه وتربيته . وقد رأى قراء الهلال من آثار قلمه فيه ، ما يشر باستمرار بزوغه عليهم ما داموا مقبلين عليه موازين له ، وولا غرو ان يحذو النقي حذو والده ،